

## أيام في الهند

كل شيء هنا يشعرك بكآبة القنور . بهجات الاستعمار . ولكنه يشعرك أيضاً بالذين يكافحون في سبيل حياة أخرى . حالات الاستقبال في المطار فيقة ، والناس ينادون مرهقين على ذلك من الهند . والكبار والأطفال ملابسهم تبدو عليها الحاجة والعوز . أو تجدها ممزقة كاشفة عن الهند الأسمر تحبها ، والروتين مستحکم في إجراءات جواز السفر ، وتفتيش الخائب ، وتسجيل العمالة الأجنبية التي تجسها معك ولكنك لا تضيق بها لأنها تشعرك بالذين يناهدون لحماية أنفسهم من أعداء أقریاء لا يرحمون . والتاكسي الذي ركبناه نحن الثلاثة من صنع الهند ، وإن كان اسمه الإنجليزي « إمباسادور » يحمل طعم الماضي ورائحته .

في الهند منعت الحكومة استيراد السيارات من الخارج . وأصبحت تعتمد تماماً على الصناعة المحلية . ولذلك فالسيارات والتكسيات ليست فارة الطول . ولا لامعة . ولا وجيبة . وإنما صغيرة عملية تحمل الناس إلى كل مكان لكي يواصلوا أعمالهم ونضاء حاجتهم ، وتشعرك بزحف البساطة على الأبهة المورثة من عهد النهراجات والإقطاع ، وبانتصارات العمل بالتدريج على المقامر الجوفاء والكاذبة التي تستنزف الدخل ، ولا تعلم الأفراد .

استودعت رفیقي في السفر عند باب الفندق . مبنى يشبه «فشلاقات» الهند . أهبائه مظلمة طويلة ، تحس أن البلاط الحشن تحت قدميك لا ينظف إلا نادراً . صعدت إلى حجرتي . الفراش الذي حمل عني حقائي رجل ذو وجه مديب يرتدي عمامة « الشيخ » . كان يؤدي التحية العسكرية كلما تحدثت إليه ، وكأنه قضى جزءاً كبيراً من حياته في



الهند : أنديرا غاندى

إبريش . وضع الحنائب في أحد الأركان ثم وقف داخل الباب . يدور بعينه الصغيرتين التاكينين حول الجدران كأنه ينتظر أوامر أخرى . بحث في جيوبه عن التكة وأعطيته نصف روية . فأنصرف إزدياً التحية العسكرية مرة أخرى .

الحجرة ضيقة بها سرير من خشب ومنضدة صغيرة ومقعد اتسخت مسانده من كثرة الاستعمال . وإلى جوار الباب تسريحة قديمة : يدرآة تجعل وجهك غير مأوف عندما تنظر إليه . من السقف تالت مروحة ضخمة . وتحت النافذة المظلة على منور ضيق جهاز تكييف ين بضجيج متصل . في الحجرة باب داخلي يقود على اليسار إلى ملحق صغير انتصب فيه دولاب من الخشب وتسريحة أخرى ، وعلى اليمين إلى الحمام . تحت سخاناً كهربائياً ضخماً وعميقاً يشبه الغلايات البخارية فأعددت نفسي ذهنياً حمام لذيذ ينفذ عنى إرهاق السفر ، وغبار الطريق من المطار .

بحثت عن عود ثقاب فلم أجده . رفعت سماعة التليفون وأدرت الرقم حسب التعليمات المكتوبة على ورقة صغيرة وضعت تحت زجاج الكومودينو المشروخ . دق الجرس برنين متصل دون أن يرد أحد . حاولت من جديد . بعد المحاولة الثالثة رد صوت ينطق كلمات إنجليزية غير مفهومة .

طلبت علبة ثقاب . فأغلق الحط بدون أن أدرك إن كان محدثي قد فهم شيئاً . انتظرت قرابة ربع ساعة ، ولكن أحداً لم يحضر . أدرت الرقم مرة أخرى بشيء من العصبية . رد على الصوت نفسه بالكلمات نفسها غير المفهومة . شرحت مطلبي في نبرات ارتفعت حدتها . وضعت السماعة وانتظرت . بعد قليل فتح الباب بدون إنذار سابق لأجد أمامي شاباً قصير القامة تالت شعوره الناعمة فوق وجهه الأسمر كأنه استيقظ من النوم منذ لحظات . كان يرندى بدلة بيضاء متسخة وصندلا . مد يده

بعلبة الثقب ثم وقف يدور بعينه نصف المغلقتين عن إحدريان ،  
كأنه يبحث عن شيء تعود أن يراه ولم يعد موجوداً. نظرت إليه متساؤلاً  
فقال بكلمات إنجليزية لتفقت معناها بصعوبة :

« عشرون بايسة ( أوروبية تساوي مائة بايسة ) .

« لماذا ؟ »

« ثمن علبة الكبريت . »

فخرجت بالإجابة في كل المنادق كانوا يضعون علبة من الثقب بجوار  
السرير . أعطيته المبلغ فتناوله من يدي ثم وقف ينتظر وهو يحملني في  
وجهي بنظرة بلهاء . أحسست برغبة شديدة في أن أضرده : ولكنني  
تمالكت نفسي وقلت :

« ماذا تنتظر ؟ »

« تلكاً قليلاً ثم قال :

« أتريد شيئاً آخر ؟ »

« لا وشكراً » .

خرج وأغلق الباب ورائه بشيء من العنف . وضعت المفتاح  
الطويل العتيق في الثقب . بعد عدة محاولات انزلق اللسان مع المفتاح .  
تذكرت الإعلان المكتوب على نافذة الحجرة في فندق « أكواتوريان »  
الفاخرة « لا تفتح النافذة . في أثناء النوم حفاظاً على حياتك » . كنت  
قد لاحظته ساعة وصولي . ولما سألت الفراش الصيني المبتسم الذي حمل  
حقائبي عن دواعي هذا الاحتياط هز كتفيه وقال : « العصابات في  
سغافورة كثيرة وخطرة » .

توجهت إلى الحمام وحاولت تشغيل السخان الكهربائي بدون  
جدوى. خلعت ملابسي وتركت المياه الباردة ترطب حرارة الجوف الخائض الذي

شعرت به منذ لحظة النزول من الطائرة . ارتديت ملابس النوم وأسقطت  
نفسى على السرير .

إلى جوارى كان صوت جهاز التكييف يرتفع فى ضجيج متصل .  
بعد قليل شعرت برائحة تفاذة تسرب إلى أنفى من مكان ما فى الحجرة .  
رائحة أحسست أنى أعرفها جيداً . شىء يشبه فضلات القطط  
والتفيران .

هكذا قضيت أول ليلة فى نيودخى . أستنشق روائح الماضى البعيد  
والقريب فى آن واحد . وأنا أمد جسدى المتعب فوق السرير الخشبي فى  
الحجرة رقم ٣٦٩ بفندق « جان بات » .

~ ~ ~

كانت ساعة الفندق تشير إلى السادسة والنصف . خرجت من  
الباب الرئيسى إلى الشارع . كنت قد قررت أن أمشى حتى المكتب  
الهنائى لهيئة العمل الدولية فى سردار باتيل مارج ( وكلمة مارج هذه  
تعنى شارع ) لم أكن بعد قد أدركت أن مدينة نيودخى الجديدة  
مبنية على مساحات شامعة . فالشوارع عريضة تمتد مسافات طويلة :  
تنخللها الحدائق الكبيرة ، والحضرة ، والأشجار فى كل مكان . البيوت  
أغلبها منخفضة مبنية من طابق أو طابقين لونها أبيض أو أحمر . وهذه  
الألوان المميزة بالإضافة إلى ضخامة البناء المعمارى ، وعلو الأسقف ،  
وكبر حجم الحجر ، والأشجار العالية تعطى المدينة طابعاً خاصاً ورثته  
من أيام الإنجليز .

فى هذه الساعة المبكرة من الصباح كانت الشوارع خالية تقريباً من  
الناظر ما عدا قليلاً من الناس يذهبون إلى عملهم فوق الدراجات .  
فالدراجات فى بلاد آسيا وسيلة شائعة للانتقال . أمام فندق « إمبيريال »  
لمحت عدداً كبيراً من سيارات الأجرة لونها أصفر ، وصفوفاً من الأسرة

مصنوعة من الخريف، مرصوفة فوق برصيف التعريض، وعلى الأسرة  
 جسام نائمة بدون غطاء، أو مدفوفة في رداء يشبه حرمل من تصوف  
 الخشن، تصبوغ بلون داكن أو أسود، ورجالاً يخدمون في مجموعات  
 صغيرة يتحدثون، أو يمشطون شعورهم نظويته كالحريير الأسود، ويلبثونها  
 في كومة عالية تحت العمامة، أو يقومون ليغتسلوا تحت مياه المتدفقة  
 من صنوبر كبير أقيم تحت كشك خشبي نصف مفتوح.

هؤلاء هم سائقو التاكسي، كلهم من «الشيخ» - والشيخ قبائل  
 محاربة عرفت بشجاعتها وقدرتها على التحمل، إنهم أتراك الهند، تجدهم  
 منتشرين في كل مكان يقومون بالأعمال الشاقة، ويعملون في المتنادق  
 حراساً، وسائقين لسيارات النقل والأجرة، وفي الزبد وانسكك الحديدية  
 والأعمال التجارية، وهم جميعاً ذوو لحى سوداء يرتدون عمامة بيضاء  
 أو سوداء أو حمراء مثبتة تحت ذقونهم بحزام من المضاط أو القماش  
 ولا يتمصون شعورهم أبداً بل يتركونها تنمو ويلبثونها تحت العمامة، وسائقو  
 التاكسي ينامون هكذا في العراء تحت السماء، فوق أسرة من الخريف  
 يتركونها في أماكن محددة في أثناء النهار ليعودوا إليها عند انتهاء العمل،  
 رجال أشداء تحس فيهم الجهد، والحدوء والطيبة.

والحو الحار الرطب في الهند سهل قضاء الليل في العراء، والنمقر يدفع  
 الناس إلى افتراش الأرض تحت السماء، والهند بلد الملايين الذين ينامون  
 في شوارع المدينة وميادينها وحدائقها وفي الحقول الممتدة آلاف الكيامترات  
 يربون منها فقط عندما تنهمر الأمطار في سيول لا تنقطع.

سرت عبر الشارع المسمى «جان بات مارج» متجهاً إلى  
 «كونوت بلايس» (أي ميدان كونوت)، وكثير من الشوارع والأماكن  
 ما زالت تحتفظ بأسمائها الإنجليزية، وجدت نفسي أحمدق في  
 ميدان ضخم تكاد العين لا ترى حدوده، تتوسطه حديقة تمتد مساحات  
 شاسعة والميدان يضاوى انشكال ترتفع منه انافورات العالية، وفي الليل  
 (٦)

تضياءً بالصباح وانكشافات المأونة فينطلق الرذاد في أقواس تشق ظلام  
الميل كسيمفونية من الألوان شريفة. كماوحة المرسومة بأصابع الباستيل .  
وحول الميدان العملاق شارعان متوازيان . حنقة داخلية وأخرى خارجية .  
وإذا أردت أن تسير المسافة حول الميدان على الأقدام فلا أقل من ثلاثة  
أرباع ساعة بالخطوة السريعة .

ولكن في ذلك الصباح عندما وجدت نفسي أصب من الشارخ  
داخل الميدان فوجئت بالحديقة الخضراء مغطاة بمئات من الأجسام .  
رجال ما زالوا ينامون ووجوههم تلمس السماء وآخرون لقوا حول أجسامهم  
نصف دائرة كالجثث في بطن أمه كأنهم يحاولون حماية أنفسهم من  
أحلام مرعجة . ورجال يجلسون القرفصاء نصف عرايا ، وقد أطلقوا  
شعورهم ولحاهم السوداء أو البيضاء . ترى عظامهم البارزة تحت الجلد .  
وصدورهم كالأقفاص المتآكلة . والخطوط السوداء المحفورة حول العيون .  
والسكون بل الحمود يسيطر على حركاتهم . والتظلمات تبدو وكأنها وجهة  
إلى الداخل لا إلى ما يدور حولهم . وكأن لا شيء مما يحدث يهمهم .

ورجال ونساء تدرك أنهم ليسوا من المنود . يرتدون الأسمال البالية .  
وتبدو على جاودهم البيضاء تلك القنارة المراكمة من إهمال النظافة .  
أظافرهم طويلة تراكم تحبها التراب الأسود ، وشعورهم الشقراء طويلة  
شعاع . ينامون ملتصقين بدون غطاء ، وقد أسندوا رؤوسهم إلى أكياس  
من التيل يحملون فيها ممتلكاتهم وملابسهم القليلة ، أو يجلسون في حلقات  
يتحدثون ، ويدخنون . أو يحملون في السماء بعيون ضائعة ، أو يخاعون  
سراهم أو قدماتهم ليجثوا في ثناياها عن القمل ، يقتلونه بعناية بين  
أضافر الأصابع . وقد كشفوا أجسادهم البيضاء تلفت النظر بين الأجسام  
السمراء المستلقية في سكون فوق أرض الحديقة . فالهند ملتحى « للمهيبيز »  
من كل أنحاء العالم . فالحياة هنا لا تكلف كثيراً . وافتراش العراء يحل  
بمحل السكن . . .

رأيت رجلاً عجوزاً ينصع من بنصرة حامدة . نعضام بنارزة تبدو  
وكثتها ستشق بحد المشيد الذي يكسوها بغضاء رمادي مريض . أسرعت  
الخطى . . . أدركت أنني أهوب من رفوية تقطر .

## الفيضان البشرى

عشرات من الموائد والمقاعد المتلاصقة لا تكاد تستطع أن تمر بينها .  
ومئات من الناس يجلسون حولها . يقرأون صحف الصباح . ويحتسون القهوة  
الساخنة وقد تركوا أحذيتهم عند الباب وارتدوا ختمًا من المطاط الأسود .  
وعند المدخل أربعة من الرجال . . . هياكل من العظم واجلد يتمسكون  
الأحذية بحركات سريعة مدربة . والناس الذين يغادرون القهوة يمشون  
أمامهم في صف طويل . ويعيدون إليهم الخف الأسود . ويرتدون  
أحذيتهم مسندين أكتفهم على قدم واحدة وعن يد يضعونها فوق درابزين  
من الخشب المتآكل . يكاد يقع تحت ضغط الأجسام المستندة إليه ؛  
ويدسون قطعة من القود مصنوعة من الألومنيوم تساوي ربع روبية في  
الأيدي الناحلة الممدودة . والأصوات ترتفع في ضجيج متصل كأنك  
في سوق كبيرة . والقهوة التي تشتريها سائل ساخن أسود لا طعم له ولا رائحة  
ولكنها رخيصة تملأ الجوف الخالي من الطعام . وتعطى شعوراً كاذباً بالطاقة .  
وبين حشد المنود بوجودهم السمراء جماعات صغيرة من « الميبيز » تطل  
عيونهم بنظرات متأملة جامدة كأنهم يعيشون في حلم بعيد . بشرتهم بيضاء  
وعيونهم زرقاء . غرباء عما يحيط بهم . ومع ذلك تحس أنهم جزء منه .  
وأن الحشود التي اندسوا بينها تعودت وجود هؤلاء الراحلين من البلاد البعيدة .  
المارين من المدن الصناعية بمدائحها وآلاتها التي تدور لتسحق الإنسان .  
الباحثين عن لحظة تأمل في الحياة : الراهدين عن انزعاج الجهد والملابس  
الناعمة . الغارقين في ضياع المحار : أو في نوع من الانفصال الذهني .  
يكاد أحياناً يقرب من التصوف . « الميبيز » هنا لا يشعرون بالغربة .

فالمطبخ الحاوية. والأسماك المنزقة. والأجساد الخريفة. وتقدرة وتحمّل أشياء معتادة. وهؤلاء يقوم برفضون كل نوع خيابة خديشة. ويبحثون عن كل ما يتناقض معها. ويجدون في اذنها تجسيدا لما يسعون إليه. ويتم يتحدثون أحيانا مع الخنزير الذين يحيطون بهم في انقاضي والشوارع والحدائق العامة. والخنزير يتقبلونهم ويعاملونهم بعطف ولكنك تحس بنوع من الحداز البارد يرتفع بين الاثنين. نوع من الاستنكار الصامت. أو عدم الاطمئنان. أو الريبة. وكان الذين فرض عليهم التمتع يرتابون في أمر الذين يبحثون عنه. ويشكون في صدق ما يدعون أو ربما لأن «الرجال ذوى العيون الزرقاء». كانوا دائما أصحاب أغراض. غزاة. لصوصاً. قراصنة. قساوسة. رجال أعمال. رجال دولة كلماهم معسولة وأنيابهم مسنونة. فلماذا لا تكون دعوة هؤلاء صورة جديدة من صور التضليل؟

والمأكولات هنا بسيطة. قطع من عجينة الدقيق أضيفت إليها الشطة. وأعشاب خضراء محمرة في الزيت مثل الطعمية. أو خبز وعسل أسود. أو عجينة البضاطس باللحمية المفرومة مقلية في الزيت. أو نوع من البقول مثل الفول. ولكن حباته صغيرة مطبوخ في صلصة بنية اللون حراقة المذاق يسمونه «دال» وخبز رفيع عادي أو مقلّى في الزيت يطلق عليه «نان». أما الأطباق الممتازة فهي لا تخرج عن أنواع من البيض أو كمنمة السمك.

ومع ذلك فإن أبسط أنواع الأطعمة في الهند تتميز بطعمها اللذيذ. فهم يستخدمون التوابل والبهارات بكميات كبيرة وبخنكة شديدة. ويبدو أن بساطة الطعام وقلة أصنافه في البلاد الفقيرة دفعت الناس إلى ابتكار الوسائل التي تغير من طعمه، وتدخل عليه شيئاً من التنوع حتى يصبح مقبولاً.

جلست إلى أحد الموائد. بعد قليل احتل ثلاثة من الرجال المقاعد الباقية حول المائدة. كانوا يقرعون الصحف. ويتحدثون فيما بينهم حديثاً

طويلاً متصلاً لا ينقطع لحظة . وكآتهم تشديد بعد فترة طويلة .

عرفت منهم أنهم ثلاثة تجار يعملون في بيع الأرز والحبوب . ودار الحديث بيننا حول الأسعار . والغلاء . ففي تيرث لفترة كانت الهند تعاني من الجفاف . لقد طال انتظار الأمطار التي تأتي عادة مع أوائل الصيف . وجفت المحاصيل في الحقول . فشحت المواد الغذائية وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً . ذلك أن ٦٠٪ من أراضي الهند ما زالت تعتمد في زراعتها على الأمطار . وامتلات أعمدة الصحف بالنقد الشديد الموجه للحكومة أنديرا غاندي . فاليمين يتهم سياسة التأميم بأنها السبب في المصاعب الاقتصادية واليأس يوجه سهامه لتجار الأرز والبنجار بين وضعف الحكومة في مواجهة الأعباء المحتكرين . والمواد الضرورية تشح أو تختفي الواحدة بعد الأخرى . بل حتى ، التمكة ، توارت طويلاً الأسبوعين اللذين قضيهما في نيودهي .

سألت البرجان الجالسين حول المائدة عن رأيهم في الموقف . فعبروا عن مخاوفهم وعن إحساسهم بالتشاؤم إزاء الأوضاع . حدثوني طويلاً عن سيطرة المحتكرين على الأسواق ، وانحسار صغار التجار ومتوسطيهم ، وعن الغلاء الفاحش . والاحتمالات المترتبة على عدم هطول الأمطار ، بل استفسر أحدهم عن فرص العمل في مصر .

### الهند تبحث عن نفسها !

خلال الأيام القليلة التي قضيتها في الهند أحسست أن البلاد كالمرجل تغلي مياهه فوق نار موقدة يرتفع طيبها يوماً بعد يوم . كنت أستيقظ لأقرأ عدداً من الصحف قبل أن يبدأ يوم العمل . وقراءة الصحف في الهند متعة حقيقية . الصحف بسيطة خالية مما يسميه الصحفيون المحترفون « بالفرن الصحفي » ثمانية صفحات مطبوعة في أعمدة بالبسط الصغير على ورق



الكنند : فلاحيون في الحقل ويمثلون شبه عرايا

يميل إلى نصرة وكأني رقد في خازن سنين طويلة . ومع ذلك فكل تيارات  
تجتمع وأحزابه وفئاته تعبر عن نفسها . وتخرج تصور بصريح الأفكار  
والصالح .

وإنما ذهبت كنت أسمع مناقشات سخارة التي تدور حول مستقبل  
البلاد والآراء متباينة بل أحياناً متناقضة . فأشد بلاد القوميات المتعددة  
واللغات المختلفة . والضيقات والفئات تفصل بينها فروق شاسعة في المستوى  
الاجتماعي وفي الطابع الثقافي . والمشاكل ضخمة . في حجم البلاد وفي  
حجم السكان . الذي يقرب سريعاً من مائة مليون . وفي حجم الفقر  
يطحن الملايين إلى درجة المجاعة .

هناك . المهرجات . وبقايا الإقطاع الذين يتحولون بسرعة إلى الأعمال  
التجارية والصناعية ويعملون من قصورهم فنادق للسياح وأغنياء  
العالم . وهناك الرأسماليون أصحاب الملايين مثل « تانا » و « برلا »  
الذين أقاموا المصانع الضخمة . وشنوا الهجمات على أندرا غاندي لأنها  
أتمت البنوك . وشركات التأمين . وتجهت إلى التعاون مع الاتحاد  
السوفييتي . وهناك بعض رجال الجامعة . والفنيون . والمهنيون . والمثقفون  
الذين ما زالوا يقلدون الإنجليز في حياتهم يتحدثون الإنجليزية من أذوقهم .  
ويتحركون ببطء مدروس ، ويهزون أكتافهم وأيديهم في استعلاء ويرنون  
بنظراتهم وأفكارهم ناحية الغرب وأمريكا بالذات . ولكن هناك مثقفون  
ومهنيون . ورجال فكر آخرون يبحثون عن شخصية الهند في تراثها .  
وتاريخها . وإنسانيها العميقة . وتلك القدرة القوية على تأمل الحياة  
ومعناها . على البحث عن المنابع . والوصول إلى الأهداف . هؤلاء  
يؤمنون بالهند . وبضرورة الاعتماد على القوة العظيمة انكاسية فيها .  
وتذكر عالم الاجتماع الأمر كما الذي قابلته في مكتبه الفاضل المزود بكل  
أدوات العصر الحديث وإمكاناته تصل نوافذه العريضة على حدائق



الهند : في شوارع دلهي القديمة الزحام « والساري »

بؤدى شهيرة . وبنى قال بمرارة : الهند استيقضت وبعثت قوم  
 ينهض في كل مكان . إنهم يقولون لنا : ما نجد نريد أن نعتد عنكم .  
 إن مستقبل الهند مرهون بتسمية مواردها الداخلية . مرهون بتجهود الشعب  
 الهندي . ثم أضاف : « لم أعد أشعر بالثقاول الذي أحسست به عندما  
 وضت قدمي أرض هذه البلاد لأول مرة منذ سبع سنوات » .

وهذا البعث القومي تشهده في كل مكان . في مداخن المصانع التي  
 تصنع الحديد والصلب . وبقاضرات والسيارات . والملابس . وفي الاهتمام  
 المتروس لتشجيع الصناعات الخرفية المتنوعة التي تشتهر بها الولايات  
 المختلفة .

آلاف الأشياء تكتف بها الأسواق . والخوانيت الصغيرة : والمتاجر  
 الخاصة والحكومية التي تباع لتسيح ولأغنياء القوم أقمشة صوف وحرير .  
 وملابس . وفخار . وتحنف . وجواهر . ومفروشات وموبيليات وأدوات  
 مصنوعة من الجلد . وأوان مختلفة : أو أطباق أو فناجين مصنوعة من  
 الفخار : كلها تخطف العين بقها الرفيع . وأوانها الجميلة . وتلك المدقة  
 التي تم عن اعتزاز اليد الصانعة بما تصنع .

وتشده أيضاً في التمسك بالزى الوطني . القميص والسروال الأبيض  
 للرجال : و « الساري » للسيدات ذلك « الساري » الذي يحول كتل البشر  
 إلى نسيج من الألوان تمتع العين ، وفي المحاولات التي تبذل لإحياء  
 اللغات الكثيرة التي تتميز بها الهند فكيف يمكن أن يتحقق البعث القومي  
 إذا كانت الإنجليزية هي اللغة الوحيدة المشتركة التي تستعمل في  
 الصحف ، والكتب وكل مراحل التعليم ، وفي جميع الأعمال الرسمية  
 الحكومية وغير الحكومية .

وتحده عندما تلخل البيوت الهندية ، في المفروشات : والسناور ،  
 والمقاعد ، والسجاجيد ، وفي الأكل الذي يتكون من عشرات الأطباق



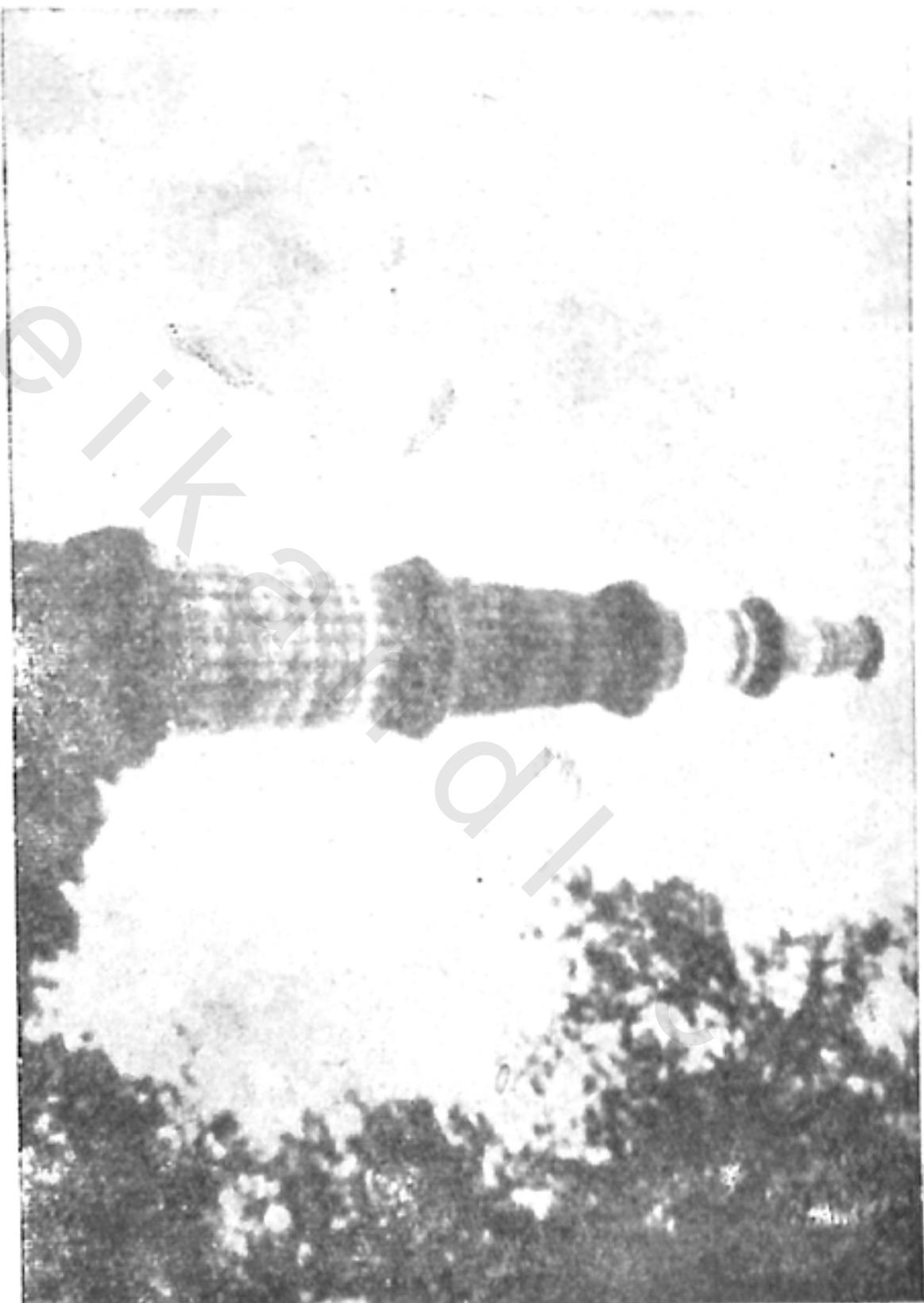
المنند : رسم الفخار و يمد إحدى الصناعات الجميلة التي تبيدها المنديات

لهذه . ولا تحفة متنوعة بقدر تنوع الولايات . فيوجد مثلاً أكثر من مائة صنف من الخبزي . وكان خمسة أو ستة من هذه الأصناف ترتبط بولاية من الولايات . أو منطقة من المناطق .

وهذا التمسك بالشخصية المتميزة يتجلى بوضوح شديد في العناية التي تحاط بها آثار الماضي ومدافن الزعماء . وأغلب الآثار من عهد المغول . الذين حكموا الهند منذ سبعمائة سنة تقريباً . والمغول كانوا مسلمين . قبائل رحالة شديدة النيس في الحروب استقروا في الهند وحكموها مرحلة امتدت ثلاثمائة سنة وكما هو شأن المسلمين عادة اهتموا بالمعمار . أقاموا المدن الحصنة . والخوانق والقلع ترتفع شاهقة مهيبه في كثير من أنحاء الهند . ومن بينها جامع « قوة الإسلام » و « الصدر الأعظم » . والقلعة الحمراء . في دلهي القديمة . والتاج محل في مدينة أجرا على بعد ٤٠٠ كيلومتر تقريباً من نيودلهي .

وأغلب هذه الآثار مصنوعة من أحجار زملية حمراء اللون تحيط بها حدائق خضراء منسقة بعناية . وأحواض من الزهور . والأشجار العملاقة . النظافة منقطعة النظير . والاهتمام بها يتميز بطابعه الشعبي . فإذا ألقى أحد الأشخاص قطعة من الورق على الأرض أو عقب سيجارة اندفع أحد من المارة ليلتقطه من الأرض ويضعه في سلة من سلال المهملات الكثيرة الموزعة في هذه الأماكن . وتحسن وأنت تسير مع السائرين بنوع من الحب والاعتزاز بحمله أبسط الناس وأفقرهم هذه الآثار الإسلامية برغم أن أغلبية السكان ليسوا من المسلمين .

وفي مدينة دلهي القديمة ذهبت في إحدى الأمسيات لزيارة مدافن غاندى ونهرو . الشمس تسقط في الأفق نصبح السحب الكثيفة بألوان رقيقة . نسيج من الحيوط البنفسجية والحمراء وتحتها ترقد التلال ساكنة خضراء تمتد حتى النهر إلى آخر حدود الرؤية . والناس يجلسون على الحشيش الأخضر الرجال . والنساء . والشيوخ والشباب . والأطفال



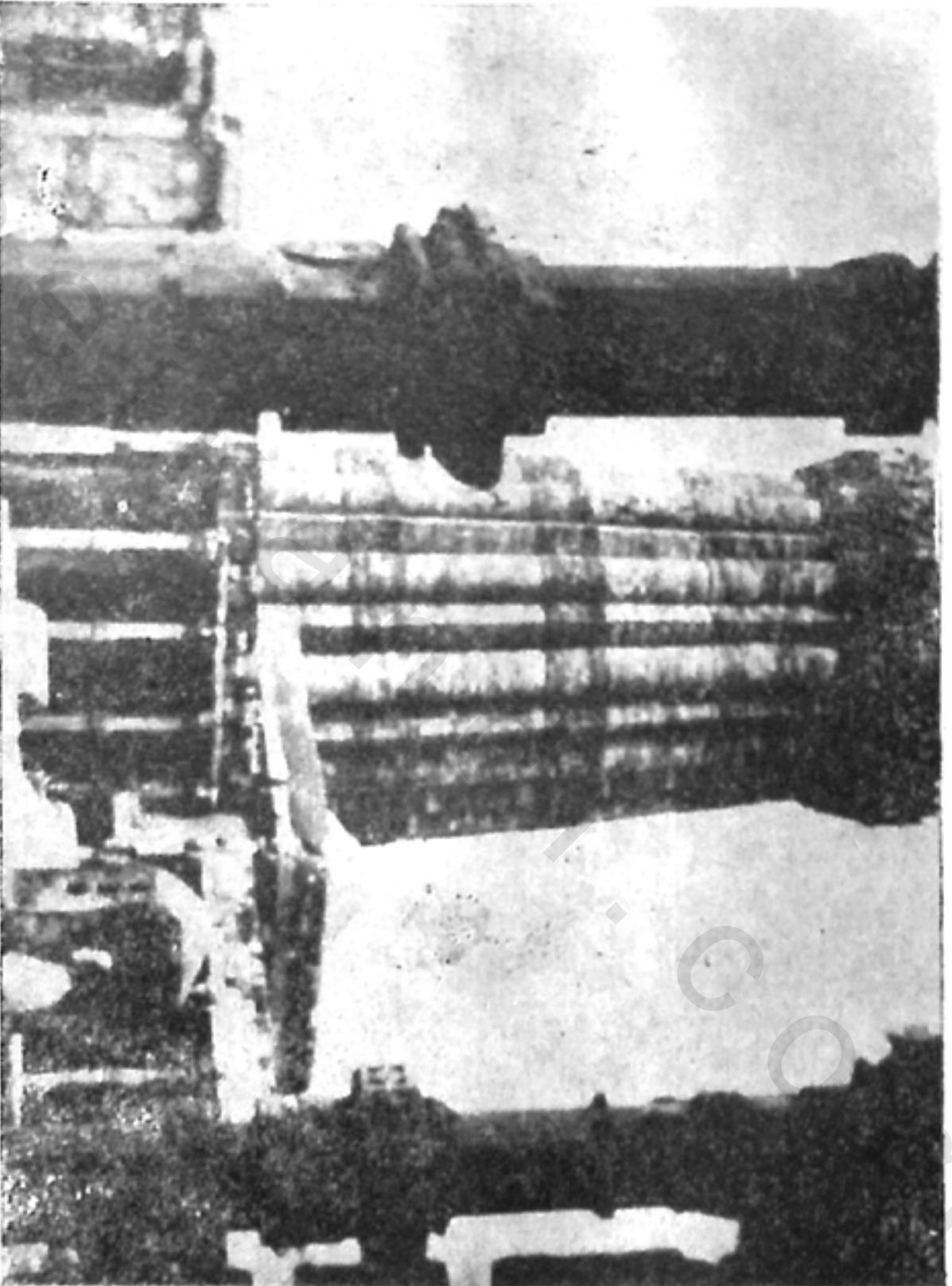
دهلي القديمة: مئذنة جامع « قوة الإسلام » ويبلغ ارتفاعها ٧٠ متراً

يتحدثون بأصوات هائلة . لا أحد يجرى . ولا صوت يرتفع في ضجيج ،  
ولا ضل يعبث بأحرف من زهور الشائبة فوق أشلال المنحدرة . وجماعات  
صغيرة من نرجس في بياسهم الأبيض . وعلى رؤوس الضوئي الأبيض ،  
وحول لوجه النحي نبي وخصنها نسيب ، وفي اليد عصاً يتكى عليها للرجل  
وهو يسير . وأمام الخليفة حوش عريض غصنه الرمال الحمراء ويجوار  
الباب الخشبي المنضى بنى الخليفة إعلان . ممنوع التدخين ، والناس  
يصفون سجايرهم قبل الدخول أو ينتظرون في الخارج حتى ينهوا منها ، وعلى  
أرض الحوش لا تلمح قطعة ورق . أو كيساً فارغاً أو قشور الفواكه ،  
أو حتى طرف سيجارة دفن تحت الخلاء . وعند طرف الحوش دورة مياه  
تلمع أحواضها وصنابيرها من كثرة التنظيف . وإلى جوار الباب حنفيات  
تصل إليها المياه من أوان فخارية ضخمة عبر مواسير من المطاط الأسود .  
فإذا شربت منها تشعر أنك لم تذق ميهاً منعشة كتلك التي تتدفق من  
فتحة الصنبور : تذكرك بشلالات الثلج المذاب التي تسقط من قمم  
الجبال في أوروبا .

وعندما تسير فوق الممر الطويل ينتظرك أحد الحراس عند مدخل  
الضريح يحرس صفوف الأحدية التي تركها أصحابها عند الدخول ، وتخلع  
حذاءك بدورك وتسير حافي القدمين فوق ألواح من الخشب وضعت على  
الأرض لتلبي أقدام السائرين .

الهدوء هنا شامل ، هدوء عميق تكاد تسمعه ، والأشجار تهتز برفق  
مع نسيم الريح . والضريح مربع كبير من الرخام : مساحة بنية  
اللون فيها دوائر سوداء صغيرة . وفوق الضريح آيتان من النحاس اللامع  
وضع فيهما رماد الجسد المحروق . فاختود يحرقون الجثة بعد الموت ، ويضعون  
الرماد في آنية صغيرة .

لمحت رجلاً طويلاً القامة . أسمر الوجه يدخل إلى الضريح . دار حوله  
ببطء مرتين . ثم وقف ووضع زهرتين صغيرتين في نون البرتقال ، واحدة



دطى التقليدية : قاعدة المئذنة في جامع قوة الإسلام من الطنجير الأحمر

على نعيمين روحية على نيسار . بقى هكذا ساكناً أمام نظريح يتضع  
 إليه بدون أن يتحرك . بعد يزحف بيضاء على مكان وتكون لا يقصده  
 سوى حفيف الشجر . والرجل كالشبح الأبيض يتأمل . . . ويفكر .  
 أحسست وأنا أقف على بضع خطوات منه نبي أشهد سرّاً من سرار  
 الخند .

## جولة في مجتمع نيودلهي !

المباني الحكومية في الخند تذكرني . بقشلاقات . الجنود الإنجليز التي  
 كانت مقامة في ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير) مبان ضخمة صفراء  
 أو حمراء اللون مكونة من مئات الأحجار كلها في حجم واحد . تمتد  
 صفوفاً طويلاً أو طابقاً فوق طابق . بل لا أعرف لماذا تذكرني كثير من  
 الأشياء في الخند بأيام الإنجليز فقد تركوا بصماتهم في كل مكان .

توقفت السيارة الفولكس الصغيرة التي خصصتها وزارة الصحة  
 لتنتقلني أمام مجمع كبير من المباني . دخلت صالة الاستقبال الضيقة  
 ووقفت أمام مكتب الاستعلامات . استقبلتني السيدة السمراء الجالسة  
 خلف المكتب بابتسامة مرهقة . أعطيتها اسمي ، فقالت : « إنهم في  
 انتظارك في إدارة تنظيم الأسرة في الدور العاشر » . همست بالانصراف  
 عندما لمحت آلة التصوير في يدي ، وقالت « ممنوع حمل آلات التصوير  
 في أثناء التجول في المباني الحكومية » . سلمتها انكاميرا فوضعتها في درج  
 مكتبها . بقايا القيود العتيقة التي لا معنى لها . صعدت إلى الدور العاشر ،  
 ثم سرت بعير « الطريقة » الطويلة بيلاطها الرمادي المتسخ وصفوف الخجر .  
 تلمح من خلال أبوابها أكواماً من الملفات القديمة مرصوفة فوق المكاتب  
 والمتاعد ، والمتاعد . و « الدواليب » وحتى الأرض . وعشرات من  
 الناس يسيرين بخطوات متسكعة كأن الوقت أمامهم طويل . وبين  
 الحين والحين دورة مياه تحولت جدرانها وأحواضها البيضاء إلى لون التراب

الهند : رجل يقضي لحظات تأمل أمام ضريح غاندى



من قمة التلّيف وتصادعت معها رقيقة نون . الحجر مكثفة بامكاتب  
والموضفين . وتحس في كل ما يحدث بقدر كبير من التوضي .

وحدث أخيراً إلى باب الحجارة رقم ٣٧١ . ضرفته طرفتين  
ممتدتين ثم دخلت . وجدت سيدة سمراء قوية الملامح ترتدي ثيابي  
الأزرق . ونظارة سميكة قلت : صباح الخير . . . أنا الدكتور شريف  
حتاة . . .

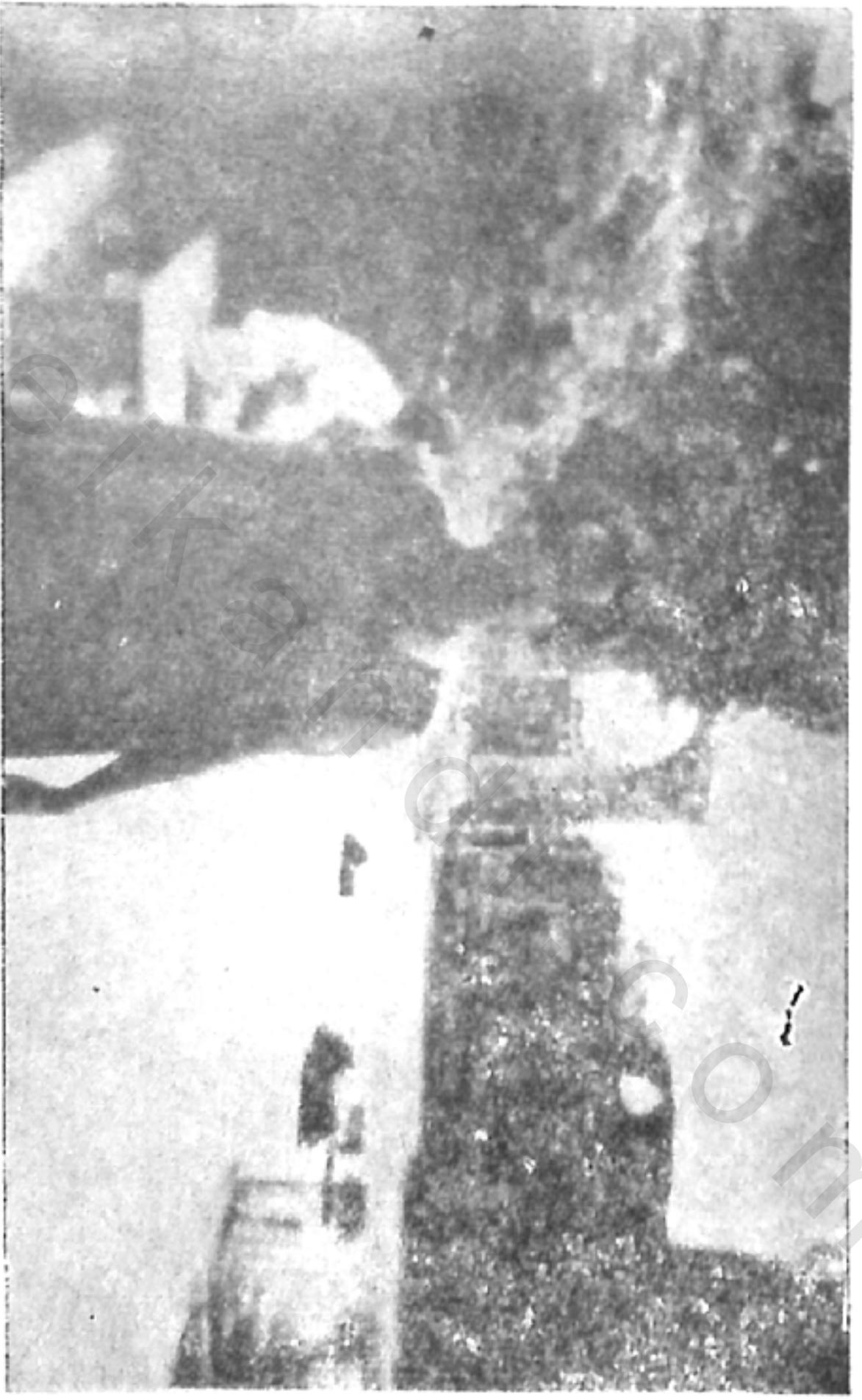
سعت أسنانها البيضاء في ابتسامة خاضفة ثم عاد الجدل إلى وجهها الصارم  
وقالت : « اتشأن أنا الدكتورة » راو . . كنت في انتظارك . فأنا المكثفة  
بعسل الترتيبات اللازمة لزيارتك . . . تفضل . . .

هكذا كان لقائي الأول مع الدكتورة « راو » . ذلك اللقاء الذي  
قادني إلى عشرة أيام من التنقل المستمر ومن اللقاءات المتتالية التي عرفت  
من خلالها الكثير لا عن مشروع تنظيم الأسرة فحسب ولكن عن الناس ،  
والمجتمع . في نيودخى .

• • •

زحفت السيارة الصغيرة ببطاء تحت سيول المطر المظلم وهي تشق  
طريقها وسط الأضواء على سطح الشوارع المبتلة متجهة إلى مستعمرة  
« كيلاش » إحدى ضواحي نيودخى المترامية .

دخلت من باب الفيلا البسيطة ذات الطابق الواحد . صديقي الطبيب  
الذي عرفته في مصر خبيراً لتنظيم الأسرة كان في انتظاري هو وزوجته  
وابنه ، وزوجة ابنه . استقبلوني بحرارة وود . فأحسست بعد قليل ببقايا  
الكلفة تبخر . لم يكن أحد من المدعوين الآخرين قد وصل بعد فجلسنا  
نتحدث في انتظار قدومهم . كان جرس الباب يذق بين الحين والحين  
لتسمع كلمات الترحيب . ازدحمت الحجرة بالضيوف يتحركون  
ويتحدثون بألفة هادئة . والناس يتعرفون ببساطة شديدة تحس فيهم  
بالمثقفين الذين يعيشون في قلب الحياة ، يعملون ويفكرون .



الحنند : ( نيودلهي ) الدكتور راجو التي تشمل وترعى أطفالها . إنها نموذج امرأة الحنند الخديويته

## الأيدى العاجزة عن البناء !

جس في جوارى ناضر المدرسة . رجل قصير تمامة بشرته بيضاء  
برغم صه خنثى .

هنا في اخند تعليم لم يتغير كثيراً . ما زلنا نضيق في الخوهر ما ورثناه  
عن الإنجليز .

فالتعليم منفصل عن الحياة إلى درجة كبيرة . مهني على تحصيل  
كميات من المعلومات في أغلب الحالات لا تفيد في أداء العمل الذي  
سيقوم به الخريج عندما ينضم إلى القوى العاملة في المجتمع . إننا لم ندرك  
بعد أهمية التعليم الوظيفي الذي يعد الإنسان لأداء وظيفة معينة فيما بعد .  
فالفلاح ينبغي أن يعد للزراعة وأن يحصل على بعض المعلومات عن حساب  
كفي يستطيع أن يتابع حساباته مع الجمعية التعاونية أو التاجر أو المالك ؛  
وعلى خبرة في إصلاح بعض الأدوات الميكانيكية أو الكهربائية التي  
قد يستخدمها . وعن التغذية والصحة حتى يحافظ على صحة نفسه وسرته  
ويتشادى العادات والتصرفات التي تعرضه للأمراض الشائعة . وعلى  
كيفية تنمية الروة الحيوانية الخاصة به . وعن الصناعات الخرفية  
المرتبطة ببيئته . وما ينطبق على ابن الفلاح أو بنته ينطبق على الفئات  
الأخرى .

والتعليم الثانوي لا بد أن يتمد صيغة النظرية التي تعد الطلبة  
للدخول في الدراسات الجامعية الأكاديمية . فإكل هنا يريدون الوصول  
إلى الجامعة . ثم عندما يتخرجون تجددهم يعملون في وظائف أو أعمال  
لا يرضون زعها . في أعمال كتابية أو حسابية مثلاً . أتصور أن عندنا  
فائضاً في المهندسين خريجي الجامعة ، إنه فائض لا عمل له ؟ وبينما  
يسعى المجتمع إلى التنمية . إلى بناء الصناعة . وإدخال الآلات في  
الزراعة ، وإقامة المشروعات المختلفة ينقصنا آلاف من الرجال والنساء

المشيين والإداريين الذين يمكنهم القيام بالأعمال التنفيذية والإشرافية اللازمة . ثم أنماط التعليم الموروثة عن الإنجيز تجعل من الإنسان مجرد حافظ للأشياء وأداة صيعة تفتقد روح الإقدام والابتكار . لا بد أن تخفف المناهج وأن تبني نظم الامتحانات على اختبار قدرة التلميذ أو الطالب على التفكير . وهذا لا يتأتى إلا بإعطاء وقت وفرص للتفكير والقرأة . والمناقشة . والاهتمام بدراسة البلاد ومشاكله . وتشجيع التفكير والمواهب الخاصة .

كان الرجل العجوز يتكلم بحماسة الشباب . تلمع عيناه الصغيرتان من خلف النظارة بدكاء وحيوية وتقطر كلماته بالأسى عندما يتحدث عن مشاكل شباب وأزماته : « إذا كان الشباب في أزمة يبحث عن مخرج ثم لا يجده . فينتهز أول فرصة تيسر له إلى بلد آخر . فنحن مسؤولون عن هذا إلى حد كبير لأننا لم نستطع أن نعطيه المثل . ولا الثقة في المستقبل ولا الإحساس بأننا نسعى بجدية لمواجهة المشاكل وتغيير المجتمع » .

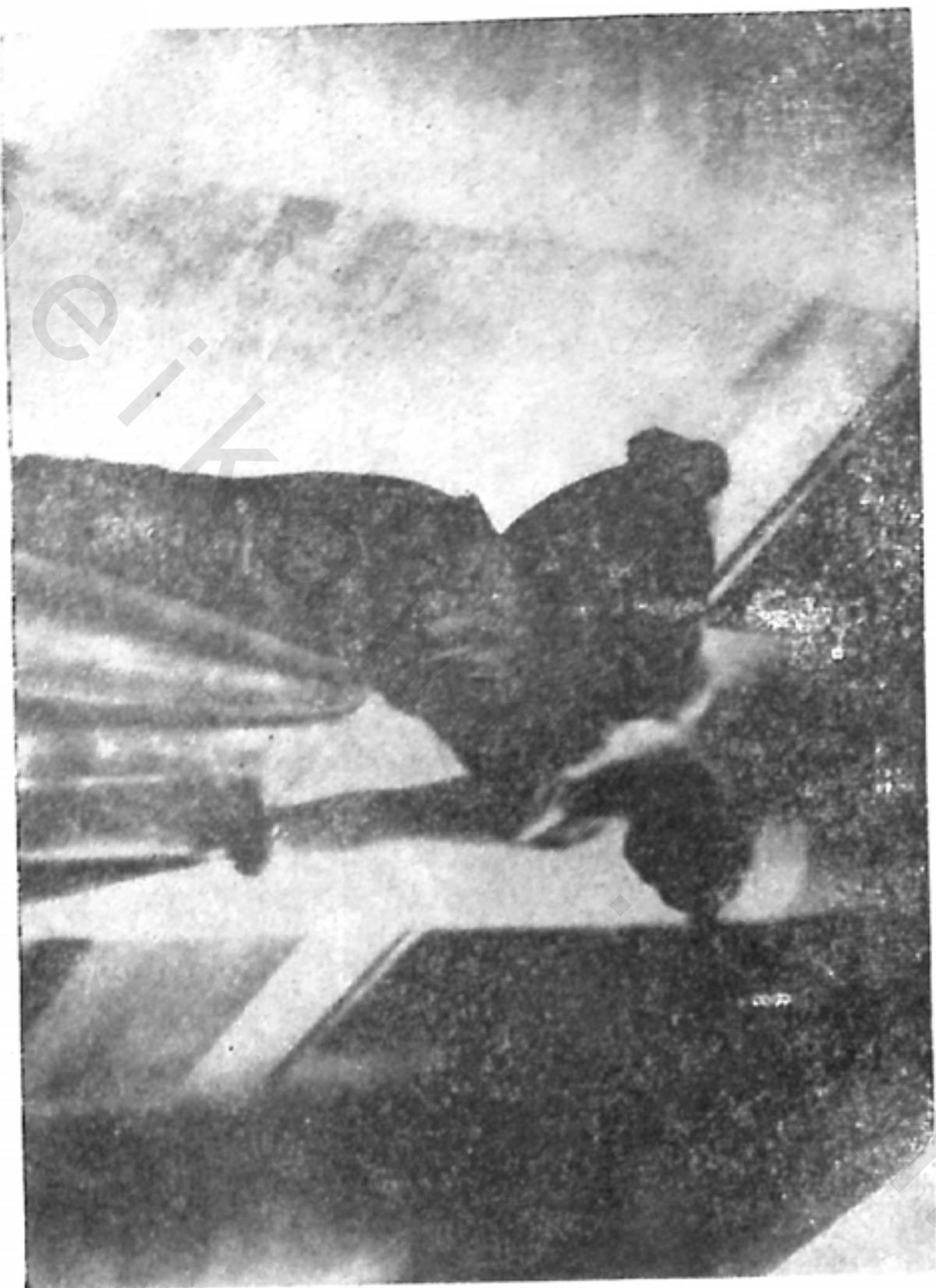
التفت إلى الفتاة التي كانت تجلس إلى جوارنا وتبغ المناقشة باهتمام واضح ، قوام طويل رشيق مائوف في الساري الأبيض . ينسدل فوق ظهرها الشعر الأسود حتى الحصر . وتقاطيع منحوتة بوضوح فيها جمال وقوة ، وعينان واسعتان في سواد الفحم يحيط بهما بياض ناصع . لمعت أسنانها البيضاء في الوجه الأسمر قلت :

« أين تعملين ؟ »

« أنا طالبة في السنة النهائية لكلية الطب » .

« ما رأيك فيما قاله صديقنا ؟ »

« أوافقها تماماً . المظاهر نفسها في كليات الطب . الهند تكتسحها الأمراض وسوء التغذية ومشاكل البيئة غير الصحية التي تنتشر الأمراض ومع ذلك نتعلم وفقاً لنظم الغرب ، ولا يوجد اهتمام جدي بالوقاية وصحة البيئة وإعداد الطبيب لمواجهة مشاكل المجتمع الحقيقية . وعندما قلت لزملائي إنني سأوقف جهودى للقلب الوقائي سخرؤا مني وقالوا : أنت هاوية فقر » .



المهند (نيودلحي) : المتحف القوي . تمثال المرأة والجرار عند المدخل . الخطوط الخمسة والوجه المتأمل

رأيت تقاطيعها تحب نفسها في خطوط من الإصرار كالثقل الخليل  
في الضوء الخافت للحجرة . استقرت بعد حفرة من السكوت  
المتأمل .

« المهنة الطبية عندنا تراو بعورتها نحو البلاد المتقدمة في الغرب ونحو  
الشرق . وهذا بتأثير كبار الأساتذة وكبار الأخصاء . تقول لهم ما الفائدة  
في أن يمكث طالب الطب سنين طويلة يدرس الأمراض المتقدمة .  
والأساليب الحديثة في العلاج ثم يذهب إلى الريف ليواجه مشاكل  
الذباب . وسوء التغذية والكوليرا . والحُميات . وإسهال الأطفال واندرن  
فإنهم ينظرون إلينا من عليائهم . ويتهموننا بأننا شباب جاهل . أو على  
الأقل متحمس لا يدرك أهمية العلم . وفي رأي أن العلم الذي لا يخل مشاكل  
المجتمع الحقيقية علم مزيف . وارتزاق . ولا يمكن أبداً أن يكون العلم  
الذي نريده . الطبيب عندما يذهب إلى الريف لا يستخدم إلا القليل  
من المعلومات التي جاهد سنين طويلة للحصول عليها . إنه يحس بالإحباط  
وبقلة فائدة الأشياء التي أتعب نفسه في تحصيلها . وهو يريد الخروج في  
أقرب فرصة . يرنو إلى المدينة أو حتى إلى الحجرة حيث يمكنه أن  
يستمر في الطريق نفسه . أن يدرس فروع الطب العلاجي . ويبني  
مستقبله الذي يرتضيه بحكم التكوين الذي حصل عليه . وعندما تقول  
لكبار المسؤولين والأطباء : لماذا لا نركز جهودنا على تكوين نوع من  
العاملين في حقل الطب معد نفسيًا . واجتماعيًا . ومهنيًا للقيام بالعمل  
المطلوب منهم مثل مساعدي الأطباء . والمعاونين الصحيين والمرضات  
يقولون لنا " أنتم تريدون الميوط بمستوى الطب وتشجيع الدجل والدجالين " .  
ومع ذلك كل شيء يشير إلى أنهم هم المعزولون عن مشاكل مجتمعنا  
فالهيئات الدولية الصحية مجمعة الآن على أن هذه الفئات هي التي تصلح  
لمواجهة المشاكل الصحية الشائعة في مجتمعنا . وأنه لا داعي لصرف  
آلاف الجنيهات على تكوين طبيب ثم إرساله إلى الريف . أو المدن



الطنء : الإخصائية الاءجتماعية تساهم في تثقيف القرويات

الصغيرة أوحى الأحياء الشعبية في مسكن . فهي سائرة كبيرة له ولمودة .  
 أليست تجربة الصين مع الأضياء اخفاة دليلا على أن الطريق الذي  
 نسير فيه خاطئ وقد علينا أن نخرج من قيود التفكير التقديري المستورد  
 من نظم الغرب . . . فتفتت إلى إضافات بعد حظة صمت : « ما رأيك ؟  
 أهذا كلام شباب متحمس ؟ »

قلت :

« إننا في حاجة إلى رأى الشباب المتحمس وجهوده . وهذه القضايا  
 مطروحة في كثير من البلاد النامية . إن المناقشات نفسها بدأت من مدة  
 عندنا . خافذة . محدودة النطاق أول الأمر . ولكنها اتسعت الآن لتشمل  
 مختلف الجهات المسؤولة . والعسمية . وصفحات الجلات : والجرائد » .  
 أطرق ناظر المدرسة برأسه إلى الأرض ثم رفع نظره إلينا وقال :  
 « ماذا نبقى هكذا بعيداً بعضنا عن بعض ؟ أنتم في مصر ونحن في  
 الهند . مشاكلنا متشابهة وآمالنا متشابهة . ومع ذلك لا نلتقي إلا  
 بالمصادفة » .

### تنظيم الأسرة في الهند

طوال الثلاثة عشر يوماً التي قضيتها متجولاً بين مختلف إدارات  
 ووحدات تنظيم الأسرة في مدينة دلهي ، والمناطق المجاورة لها في الريف ،  
 كانت الصحافة تتناول المشكلة السكانية في عديد من المقالات والدراسات  
 والتعليقات . وكان الطابع الغالب هو عدم الرضى بالنتائج التي وصلوا  
 إليها . فقد كانت الآمال المعقودة على تحقيق انخفاض ملموس في النمو  
 السكاني تصطدم بعقبات وصعوبات كثيرة لم يتمكن مشروع تنظيم  
 الأسرة من التغلب عليها ، مما حال دون الوصول إلى أهدافه .

ومن خلال المناقشات التي دارت بيني وبين المسئول عن جهاز تنظيم  
 الأسرة : وهي أستاذة سابقة في أمراض النساء والولادة ، وكذلك بين

بإني مسئولين في التخطيط والإعلام والتدريب والتتويج وفي الوحدات المختلفة . استطعت أن أصل إلى بعض الملاحظات الهامة فيما يتعلق بهذا المشروع الحيوى .

والإدارة المختصة بمشروع تنظيم الأسرة في لندن تابعة لوزارة الصحة : وقد أدت هذه التبعية الإدارية إلى حصر حدود النشاط المتعلق بتنظيم الأسرة في نطاق الصحة أساساً على حين نجد المشكلة السكانية تتأثر إلى درجة بعيدة بعملية التنمية في مجالات الصناعة ، والزراعة ، وتشغيل القوى العاملة ذكوراً وإناثاً . والتعليم والتنمية الاجتماعية ( رعاية الأسر ، الصناعات الريفية ، دور الحضارة ) وبالسياسات التي تتبع في هذه المجالات . كما أن النشاط الخاص بتنظيم الأسرة يمكن ، بل ينبغي ، أن يدخل كجزء أساسى من المشاريع التي تنفذ في المجالات المختلفة . ووجود تنظيم الأسرة كإدارة في وزارة الصحة يعزفنا إلى حد كبير عن الوزارات والهيئات الأخرى . ويحول دون أن ترتفع إلى مستوى السياسة القومية المنفذة في مختلف ميادين التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وعندما شرحت لهم أن المهيمن على تنظيم الأسرة في مصر هو المجلس الأعلى الذى يضم الوزارات وممثلى الهيئات المهنية بمختلف نواحي المشكلة السكانية وتنظيم الأسرة . اعتبروا هذا الوضع خطوة هامة ومتقدمة يمكن أن تساعد على أن تصبح السياسة السكانية وتنظيم الأسرة جزءاً لا يتجزأ من خطة التنمية . والخطة العشرية .

وقد لاحظت عدداً كبيراً من النساء في الأعمال المختلفة وعلى الأخص في تنظيم الأسرة حيث يتولين مسؤوليات هامة . ومن بينهن الدكتورة « راو » التي كانت تراقبني في جميع الزيارات والتي كانت مثالا للدقة والاهتمام وتحمل المشاق طوال الفترة التي قضيتها في دهي ، برغم غياب زوجها الذى كان يعمل ضابطاً في البحرية عن البيت . واضطرارها إلى تحمل أعباء أطفالها وحدها .



الهند : حديث في القرية عن تنظيم الأسرة ويرى الإخصائي الاجتماعي يناقش الرجال

جسدت في منضم صغير . بجوار عرشه اندثرت بحرف الوطنية ذنوبه  
غذاءنا المتكون من ساندوتش حصة . وكوب كبير من القهوة المشبعة  
بانان . قات ذاك :

تحيين عميت ؟

ليس كثيراً . أنا أكره الأعمال الإدارية وأفضل التدريس . ولذلك  
أسعى إن نقلني إلى المعهد القومي لتنظيم الأسرة .

كنا قد زرنا المعهد في الصباح . مبنى أبيض كبير في إحدى ضواحي  
نيودهي يتواءم بالأبحاث والدراسات الخاصة بالمشكلة السكانية وتنظيم الأسرة  
في اتجاهات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والإعلامية إلخ . أحسست  
إحساساً خفياً وأنا أدور بين أقسامه أنه خان من الناس . محدود النشاط .  
وعندما سألت الزكورة : راو ، لم تخف عن الحقيقة . بل أكدت  
استنتاجي . وأوضحت أن السبب يكمن في أن جميع الذين يسعون  
إلى العمل فيه . يعتبرونه جسراً للانتقال إلى الخارج . أو إلى الهيئات الدولية  
ولذلك يفقد المعهد أساتذته وباحثيه باستمرار .

أعجبني صراحتها . ولكنني اكتشفت بعد قليل أنها تبدي رأيها  
بصراحة في كل الأمور . وفي كل الناس بدون تحامل . فأعجبت بها  
أكثر .

« إذن ربما تريد أن أت أيضاً العمل في الهيئات الدولية ؟ »

« للفرات قصيرة ربما . فالسفر تجربة ومثيرة . ولكن ليس على طول .

من يفقد صانته بالوطن يفقد الكثير منهما كانت متاعب هذا الوطن . »

« ومتاعب تنظيم الأسرة ؟ »

« إن المسؤولين يعتقدون أحياناً أن الإنجاب مثل الصنبور نستطيع  
نحن التأمين على المشروع أن نفتحها ونغلقها كما نشاء . لا يدركون أننا  
نتعامل مع ملايين البشر يتأثرون بعوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية في  
منتهى التعقيد . إنهم يسألون :

ما هي نسبة انخفاض في نمو سكاني خلال السنة الماضية ؟  
 وماذا تفعلون ؟

« ما زلنا ندور في نطاق الصحة . الأسرة . وبالنسبة في الريف يريدون الأطفال . وحتى السيدات اللاتي يستخدمن الحبوب لا ينتظمن في استخدامها وهذا خطأ كبير يؤدي إلى الحمل في كثير من الحالات . إننا نسعى إلى إقناع السيدات بحقيقة هامة وهي أن إطالة الفترات بين الإنجاب مفيدة لصحة الأم والطفل جسدياً . ونفسياً . وفرصة لاستعاضة الطاقة المفقودة . وإن أمثل سن للإنجاب هو ما بين ٢١ و ٣٢ سنة وهذه حقائق طبية ينبغي أن يدركها الجميع . »

« وبعد ذلك . »

« ركزنا في الفترات الماضية على حملات التعقيم في النساء أساساً في الرجال . وهي عملية بسيطة سهلة وتناجها مضمونة . والناس . بعد عدد معين من الأطفال ، كثيراً ما يريدون التوقف عن الإنجاب . ونحن ندفع حافزاً مالياً للذين يوافقون على إجراء هذه العملية . وقد أقبل عليها ملايين من الناس وأغلبيتهم من الفقراء ، ولكن مع ذلك ليس بالأعداد التي يكون لها أثر ملموس على النمو السكاني . »

« أليس للحافز المالي دور في هذا وبخاصة مع الفقراء ؟ فالفقير عندكم شديد الوطأة إلى درجة الجوع . »

« طبعاً . ولكن ما العجب في ذلك طالما أن النتيجة مفيدة ؟ »

« لا أعرف بالضبط . ولكن الفكرة تصدني من الناحية الإنسانية فضلاً عن أنها تم توثق بالأثر المتوقع على النمو السكاني . »

« هذا صحيح . ولكنها على الأقل تخفف من المشكلة . ألا تستخدمون هذا الأسلوب عندكم ؟ »

« لا . إننا نفضل الاعتماد في مشروعنا على الإرادة الحرة والوعي . »

كما أن الحوافز كثيراً ما تكون أداة للفساد . وبعد ذلك ؟ »

نعم، في عملنا الإعلامي على إقناع قيادات محلية . وذوى النفوذ  
الأدنى والتكوى في القرى والأحياء الشعبية . وهم أكثر الناس قدرة في  
التأثير على الآخرين . وكذلك نعضى العاملين في المصانع أهمها خاصاً  
فظروف حياتهم . والأعباء الأسرية . وانتضع إلى حياة أفضل تجعلهم  
أكثر استعداداً لتقبل فكرة تنظيم الأسرة . وهناك جهود تبذل لإدخال  
الدراسات السكانية وتنظيم الأسرة في جميع مراحل التعليم من المرحلة  
الابتدائية حتى الجامعة . فالأجيال المتعلمة ذات أثر كبير في الأسر  
وهي التي ستبنى مجتمع المستقبل .

« ما هي أهم خطوة يمكن في رأيك أن تضمن نجاح تنظيم الأسرة إلى  
درجة أكبر ؟ »

فكرت قليلاً ثم قالت :

« أن يدرك انشغالون . لا بالقول . ولكن بالفعل . أنها مشكلة  
قومية . أن يدخل البعد السكاني ونشاط تنظيم الأسرة في صلب خطط  
التنمية والخطط الخمسية والعشرية وفي سياسات التصنيع . والتشغيل .  
والتعليم والثقافة . والمشاريع الاجتماعية . والزراعة وكل مجالات النشاط .  
وهذا هو السبيل الوحيد » .

دفعنا الحساب وخرجنا . قالت : « ألا تريد أن ترى بعض المعالم  
الحميلة في بلادنا ؟ إن تنظيم الأسرة ليس إلا جانباً من جوانب  
حياتنا » .

قلت ضاحكاً : « في بلادنا يقول الكثيرون إن تنظيم الأسرة وسيلة  
للتتره في أنحاء العالم » .

« عندك يوم ونصف إجازة . اذهب إلى دلهي القديمة ، ثم سافر  
إلى أجرا » .

« أجرا . لماذا أجرا ؟ »



دخلى القديمة : صورة من صور الفخر في الهند

« لا تعرف يا هناك » نتاج محو « تريد أن تزور الخند بدون أن ترى النتاج محو ؟

### في الطريق إلى « أجرا »

القطار يزحف بين الحقول الخضراء تذكرني بالريف في بلادنا .  
 مساحات ممتدة من الخضرة . تتخللها بيوت من الطين لا تفرق  
 عن مسكن الفلاح المصري سوى أنها أقل عدواً وأصغر حجماً إلى درجة  
 يصعب معها تصور كيف يمكن أن تحشر أسرة من خمسة أو ستة أفراد  
 نفسها بداخلها . القرى أيضاً مثل القرى المصرية تجسعات من بيوت  
 الطين تفصنها الخوازي المتعرجة . وتحيط بها أكوام من روث البهايم ،  
 وأسراب الأضنك . وسحب من الدباب الأسود . وأما كل قرية حوش  
 كبير . أو بركة من الشياذ مزدحمة بعشرات من الحماموس . كتل سوداء  
 ضخمة غاطسة في المياه بدون حركة . تستمتع بالحرارة اللافتحة  
 التي تطلقها الشمس . وتطل برؤوسها وعميومتها على الناس . وعلى القطار  
 المسرع فوق القضبان .

والحماموس هنا قوى البنية . مكثرت الجسد . تحس باللحم والشحم  
 تحت الجناح الأسود المشدود . فالزراعة تعتمد في الأساس على الأمطار ،  
 ومن النافذة تبدو المساحات الشاسعة من الأراضي البائرة لأنها محرومة  
 من سبل الري . الإنسان يجوع ويتحول إلى هيكل من العظام والجناد .  
 والحماموس لا يعمل في الحقول إلا عدداً محدوداً من الأشهر : يأكل  
 من الحشائش والنباتات البرية . ويسمن .

ولكن إلى جوار الحماموس الأسود تجد البقر الأبيض يقف في الحقول  
 أو يتجول في الخوازي أو حتى في شوارع المدن . فالبقر مقدس لا يتوز  
 تشغيله أو التعرض له . ولذلك يشتم بحرية كاملة في التنقل من مكان إلى  
 مكان مهما كان مزدحماً بالناس والسيارات . تراد يسير كالشبح الأبيض

عظامه بارزة تحت الجلد يبدو عيبه بخوع انشديد . فقلنا أن اليقر  
لا يعمل فليس لأحد مصلحة في إضعافه . وهكذا نجد هذا التناقض  
الغريب . حيوان مقدس يتعرض من الإهمال .

والمشكلة السكانية في الهند تصدمك في كل مكان . مئات الآلاف  
من البشر يزدهسون في المدن والقرى إلى درجة تثير القزع والناس يجلسون  
على الأرصفة . وفي الشوارع . وأمام البيوت والحوانيت . وفي محطات  
السكة الحديد . وفي كل مكان . بل في أي مكان . وعندما يأتي المساء  
يفترشون الأرض أو سريراً من البوص وبخريد . وينامون حيث هم . وعندما  
تمر أمام هذه الأنوف التي لا عمل لها تحس معنى البطالة ، العيون  
الفارغة تحيط بها هالة سوداء مخمورة . والصدور البارزة . والأيدي  
المتركة في الحجر . والنظرة التي تبحث بعيداً عن لا شيء . وأفواج  
الأطفال والشباب تجري خلفك بكف ممدودة تطلب قطعة من النقود .  
ذلك أن الاعتماد على المطر في الزراعة يولد البطالة . والقطاع الصناعي  
المحدود عاجز عن استيعاب الأيدي العاملة .

كنت قد استقالت الفطار في الصباح الباكر . المحطة مزدحمة بالآلاف  
الناس ، يحملون أمتعتهم . منظرهم يذكر باللاجئين الذين يحملون بقايا  
ممتلكاتهم بعد أن قضى عدو غادر على كل شيء فلم يبق معهم إلا صرة  
ملابس . وغطاء يفرشونه في أي مكان ، وكسرة من الخبز الخاف  
يفرسون فيها أمتعتهم . ومعهم أطفال نصف عرايا بظونهم متورمة وعيونهم  
جاحظة . وفوق الأرصفة مئات من الأجساد تحمق في الأقواس الحديدية  
لسقف المحطة كأنها الضلوع ترفع قفصاً من الزجاج ، أو متكومة على  
نفسها مستغرقة في النوم تحاول أن تنكمش بعيداً عن مشاكل الحياة ،  
أجساد ترتدى لباساً أحمر اللون ، زي موحد يشبه زي المساجين . هؤلاء  
هم « الكوليز » يعملون حمالين في المحطة . الحقيبة الكبيرة تنقل إلى القطار  
بنصف روبية . وإزاء عددهم الكبير فإن حصيلة اليوم لا تزيد على روبية



الهند : الجاموس الأسود ولحمه يؤكل بمكس البقر المحرم

في أحسن الظروف ( ستة قروش ) .

وعند عربة الدرجة الأولى وقف رجل أسمر يرتدى بدلة بيضاء . كان يحمل كسفاً بأرقام القاعد بين يديه . نظر في التذكرة . ودون اسمي في الكشف ثم أشار إلى بانركوب وجئت في مكاني .

على الجانب الآخر من القطار كان يجلس اثنان ، شاب وشابة . هو طويل القامة بشكل غير عادي يرتدى ، بنجاً وذاً كاكياً . وقميصاً بنياً مفتوحاً . وجهه المنحوت في زوايا حادة تحيط به لحية غريبة أضفت عليه شيئاً يذكرك بالتميس . وعيناه فيهما نظرة ثابتة تصل من الزرقة العميقة كحد الموي . كان يتحدث بلهجة أمريكية ممطوطة تميز سكان ولايات الجنوب . أدا هي فلم يكن معها سوى حقيبة يد صغيرة . قوامها الرشيح يلغى ثوب بسيط وشعرها الأصفر ينسدل في موجات حارة فوق الكتفين .

كانا يتحدثان ويضحكان في حيوية متدفقة . تحسن أنهما تعرفا حديثاً ربما في الطريق في أثناء السفر . بعد قليل انصرف عنها إلى النافذة يطل على الحقول والناس من خلال منظار مكبر ضخم أخرجه من كيس للأمتعة كان يحمله معه ، ثم استغرق في كتاب ماون عن الطيور والعصافير . فاستسلمت لنوم هادئ وقد أسندت رأسها على كتفه في ألفة مطمئنة . ترى أين التقيا . . . وإلى أين تسير بهما الحياة ؟

### إلى أين تسير الهند ؟

أسلمت نفسي لنعمة العجلات المنتظمة فوق القمضيان . بالأمس رأيت أنديرا غاندي . كانت الهند تستعد للاحتفال بيوم الاستقلال ، وسط أخبار مفرجة عن الجفاف ، والعجز في محاصيل القمح ، والأسعار الصاعدة وحملات على الحكومة وعلى تخاذلها في محاربة المحتكرين وتجار السوق السوداء . على جانبي الشارع العريض وقف آلاف ينتظرون

محيبها . كانت ستحضر اجتماعاً جماهيرياً لشباب . رأيت ضابطاً هندياً  
 يهال بعصاه الضوئية على صفوف الواقفين يحاول أن يدفعهم إلى التراجع  
 خطوات . حنقوا فيه بازدرء هادئ فتراجع أمام نظراتهم الباردة المشتعلة  
 يشتم بصوت منخفض وكأنه يخشى أن يلتقط أحدهم معنى كلماته .

فجأة دقت الموسيقى النحاسية . وارتفعت صيحات الترحيب فتوقفت  
 موكباً من الجنود ، أو ضابطاً من الموسيقيين ولكن الشارع العريض  
 ظل خالياً . التفت إلى الصفوف المتراصة أحاول أن أستشف مشاعر  
 الناس فلمحت من طرف عيني سيارة جيب عادية تتقدم ببطء وسط  
 الشارع . يقودها جندي . وإلى جواره جلس أحد الضباط  
 ونحلتنيما وقفت امرأة سمراء منتصبه القامة ترتدي سارياً أبيض وعيناها  
 اليراسعتان دائرتان من الفحم . وشعرها الأسود يتخلله شريط أبيض من  
 الشيب . كانت تمسك ظهر المقعد بيد وتلوح بيد أخرى . وتبتسم ابتسامة  
 فيها خليط من الحزن والحنان . توقفت السيارة . واندمج نحوها جمع من  
 الشباب يحملون باقات الزهور . انحنيت تتأقننها منهم ثم استأنفت السيارة  
 مسيرها وهي تحمل الزهور بين ذراعيها وتضيء وجهها الابتسامة نفسها .

هكذا رأيت أنديرا غاندي بالصادفة . وهذه هي صورتها كما رأيتها  
 في شوارع نيودلهي . ولكن المدة القصيرة التي قضيتها في الهند أعطتني  
 بعض الانطباعات عن المرأة التي تحكم ما يقرب من ٦٠٠ مليون من  
 البشر .

من الأشياء التي كانت تثير تساؤل . هو ماذا تمكنت المرأة في  
 الهندوسيلان (سرى لانكا الآن) بالذات من أن تحتل منصب رئيسة الدولة ،  
 في سيلان تحكم باندرانايكه . وفي الهند أنديرا غاندي . وهذه بالطبع  
 ظاهرة غير عادية حتى في عالم القرن العشرين . وهي لم تحدث حتى في  
 البلاد الاشتراكية التي قطعت شوطاً بعيداً في المساواة بين الرجل والمرأة .  
 بل هناك مجتمعات تستكف رئاسة المرأة للرجل في العمل ، وتعتبرها

عيب . وعندما زرت الهند لاحظت أن مثل هذه القضية لا تشكل مشكلة على الإطلاق على الأقل في مجتمع نيودلهي . فامرأة مثقفة تعمل في كل الميادين وتحتل وظائف رئاسية في كثير من الأحيان وهي مشغولة عن قيادة عدد كبير من الرجال وتوجيههم . وعند ما سألت بعض السيدات اللاتي يتولين مناصب هامة عما إذا كان وضعهن كمنسب يسبب لمن متاعب مع الرجال وجدت نفيًا قاطعاً لأية شبهة من هذا التعميل . ويبدو أن المجتمع في الهند قد تعود هذه الظاهرة منذ ستين كما هو الحال في بعض القطاعات الخدمية عندنا مثل الشئون الاجتماعية . ولكن عندما حاولت أن أفهم أسباب هذا التقدم في وضع المرأة لم أهتمد إلى أسباب مقنعة . فالهند ما زالت بناداً نامياً يعاني من التخلف الاقتصادي والاجتماعي . وظاهرة اشتغال المرأة ما زالت محدودة النطاق : كما أن النساء لا يستعن بكل حقوق الرجل . ومع ذلك فإن مكانة المرأة في الحياة العامة ، وفي المجتمعات ، وفي العمل وتمتعها بقدر كبير من الحرية والاستقلال ظاهرة منفتحة للنظر ، وواضحة من نواحي التقدم في الهند . ويبدو من ضمن الأسباب أن الديانة الهندوكية ، التي يؤمن بها أغلب سكان الهند لا تفرق بين الأنثى والذكر برغم وجود فواصل وأضحية وجملة بين الطبقات الاجتماعية . فقد عرفت الهند طويلاً بنظام « المشوذين » الذين كانوا يتولون الأعمال التي تعتبر وضعية في المجتمع ، ويشكون الكثرة الرئيسية من الفقراء ، ذلك النظام الذي وجه إليه « غاندي » أعنف الضربات إلى أن تقلصت مظاهره إلى نطاق محدود للغاية .

كانوا قد وضعوا تحت تصرفي سيارة أتقفل بها في « نيودلهي » في أثناء زيارتي لخزانف الأنشطة الخاصة بتنظيم الأسرة . وإلى جانب سائق السيارة كان يرافقتني في بعض الأحيان أحد منبوني إدارة الإعلام . وفي يوم من الأيام كنا ننتجه إلى مؤسسة فورد بجوار الحدائق المشهورة المسماة « لودي جاردنز » . كان أمامنا متسع من الوقت قبل الميعاد فاقترحت

على مرافقي أن نتناول فنجاناً من القهوة وبعض الحلويات الهندية التي أردت أن أتذوقها لأول مرة . فتوقفتنا أماء محل صغير . دخلنا من الباب ولكنني لاحظت أن السائق بقي في الخارج مع اسيارة فطلبت من مرافقي أن يلحق بنا . عندما جلسنا في المحل رفض السائق رفضاً بارزاً أن يجلس معنا على نفس المائدة أو أن يأكل من نفس أطباق الحلويات التي اخترناها . وبعد أن خرجنا من المحل سألت مرافقي عن السبب فقال : « غاندي أغنى جزءاً كبيراً من الفواصل بين الطبقات . ولكن هناك بقايا ما زال تحطيسها أمراً يتطلب مزيداً من التطور الاجتماعي والثقفي » .

وهذه هي إحدى المعارك التي دخلت فيها أنديرا غاندي . في الفترة التي زرت فيها الهند كانت في أوج شعبيتها . إنها استطاعت بالاعتماد على الجناح المتقدم في حزب المؤتمر ، وعلى اليسار ، وعن طريق اللجوء إلى جماهير الشعب أن تحقق انتصاراً ساحقاً في الانتخابات ، وأن تعزل الجناح الرجعي في حزب المؤتمر . وكانت قد حققت انتصاراً عسكرياً حاسماً وسريعاً ناهض على الجيوش الباكستانية في الحرب التي قامت حول مشكلة استقلال بنجلاديش . ولكن في الوقت نفسه كانت تواجه مشاكل معقدة وصعبة تتعلق بالتطور الاقتصادي والاجتماعي للبلاد .

المواد الغذائية أصابها نقص شديد نتيجة للجنفاف ، والأسعار تصعد بشكل جنوني ، والأوساط الرأسمالية تستفيد من الوضع المضاربة بالأسعار والنيل من الشعبية التي اكتسبتها أنديرا غاندي . وكل الدلائل تشير إلى أن استمرار الأوضاع كما هي لا بد أن تساعد أعداء التقدم على الاستفادة من هذه المضاعف ، ومن غيرها ، لتوجه سخط الجماهير ضد سياستها ، وضد الإجراءات التي اتخذتها مثل تأميم البنوك ، وشركات التأمين وبعض الصناعات الهامة . وهي في مركز قوى ، تتمتع بتأييد واسع من الجماهير ، والتوقيت أنسب ما يكون لاتخاذ خطوات جديدة حاسمة في الطريق نفسه ومع ذلك فهي تنتظر .



المنند : قرية هندية حيث يستخدمون الأدوات البدائية

هكذا صورني الموقف أعجب الذين قابلته . ما عدا ذلك العدد  
لثقل الذي تنجبه آماله نحو ضيق آخر : ضيق النمو الرئاسي .  
فإذا زرت الهند في هذه الأيام تحس أنها في مفترق الطرق .

## الرخام أخمص

هبطنا من القطار وركبنا الأتوبيس المنتظر خارج المحطة . انطلق  
بنا عبر الشوارع الضيقة المتعرجة . مئات الحيوانات الصغيرة تبيع الصنادل ،  
والحبوب . والأصعنة والأقشعة . وخبثاً من السلع المستعملة : وآلاف  
من الناس يتسوق أمامها . أحياناً نصف عرايا . والأطفال بأعداد  
لا تحصى . والذباب والشفة الجوا الحار الرطب : وأزيز المروحة في  
الأتوبيس مثل قوس في يد طفل يروح ويحيى على أوتار الربابة يرهق  
الأعصاب .

مدن المغول جدران حمراء تحيط بالقصور . والقصور صروح أقامها  
أيادي البنائين الماهرة ترتفع طابقياً فوق طابق لتظل على الوادي الأخضر  
يمتد حتى الأفق . ومجار للمياه ومساقط ، وحجرات وأحواش : وكل شيء  
مبنى من كتل الحجارة الحمراء . معمار يدل على الفخ والجهروت في آن  
واحد ، خليط من المدنية والبربرية ، مزيج من الحس المرهف والقسوة .  
يشعرك بأن الحياة هنا كانت تحلق فوقها رائحة العطور وندم المشوك .

وعندما أذهب لرؤية هذه العالم فينني نادراً ما أشعر بمتعة حقيقية .  
فالحجارة مهما كانت جميلة لا تترك في عقلي أو قلبي شيئاً أحمله معي  
بعد أن أترك المكان . الحجر لا يشعل الفكر والخيال إلا منحوتاً أو مصبوباً  
في بعض أمثائل . عندئذ يتحدث الحجر الصامت بعذاب الفنان ومعاناته ،  
أما آثار المعمار الضخمة فتعيد إلى المطعم المر للطلغيان وائق .  
أخيراً وصلنا إلى مقصدنا . دخلنا من البوابة الحجرية إلى حوش مربع

تحيط به الأبنية الحمراء التي أصبحت جزءاً من المناظر المذكورة لدى .  
 سعدنا السلام إلى قوس مفتوح في البناء . تقدمت بخطوات بطيئة أستمتع  
 بالنسيم المنعش الرطب الذي هب علينا فجأة ينساب بدفعات قوية لينة  
 عبر القوس المفتوح . خطت قدماي فوق آخر درجة وسارت فوق أرض  
 من الرخام الأبيض تقع عيناي على منظر لم أر مثيلاً له من قبل .  
 عبر القوس المفتوح على بعد ما يقرب من مائة متر رأيت بناء  
 كالنافورة البيضاء تنفجر من أحشاء الأرض الخضراء . قبة مستديرة  
 كالهد ، وماذن عند الأركان ترتفع في تحد نحو السماء . والرخام الأبيض  
 يشتعل . بهدوء في ألوان الشمس المشرقة .  
 همس الترجمان في صوت خفيض :

« قيل إن السلطان حزن حزناً عميقاً على موت زوجته . فقد كانت  
 أحب النساء إلى قلبه فأمر بإقامة هذا الضريح ليحتوى جسدها » .  
 قلت :

« ولكن اليد التي صنعت هذه الخطوط تمردت على أوامر السلطان » .  
 « كيف؟ »

« اليد لم تصنع ضريحاً لحب السلطان ، فالسلطان لم يكن يعرف  
 معنى الحب » .

« ماذا صنعت إذن؟ »

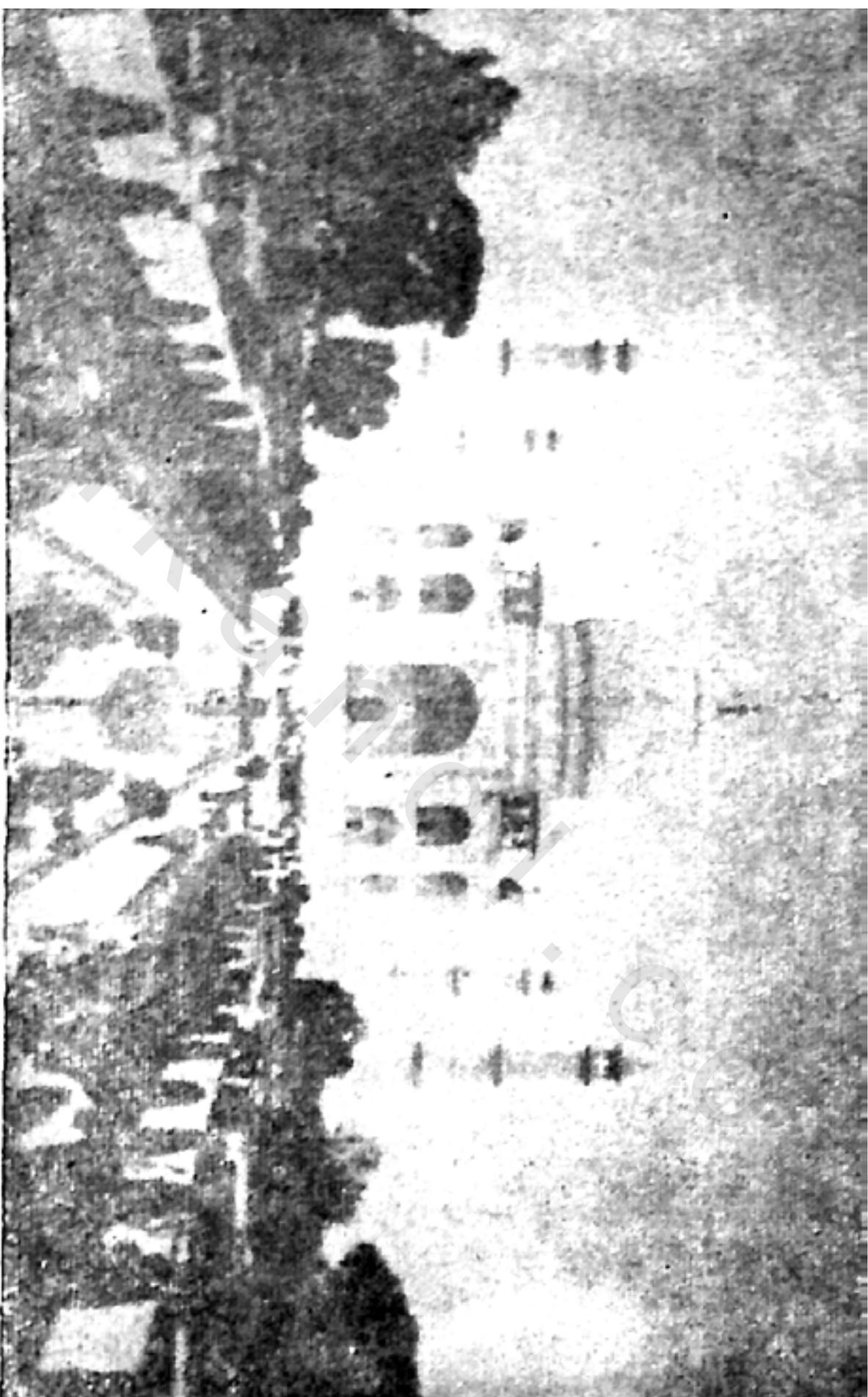
« صنعت ضريحاً للحب الحقيقي ، لشافية الإنسان ، وخصوبة  
 الحياة » .

قال الترجمان :

ولكن هذا هو « التاج محل » .

نظرت إليه كأنني لم أسمع . سرت بخطوات بطيئة أقرب من الضريح .  
 تملكنتي رغبة عارمة في أن ألمسه ، كأن الرخام الأبيض سيرتعش بالحياة  
 تحت يدي .

المهند : ( تاج محل ) ، فريخ للجب صنعته أيد فنانه



## عودة من « التاج محل »

ما زالت أمامنا ساعتان قبل أن نستقل قطار العودة من « أجراء » إلى « نيودلهي » . أخذت أتجول في شوارع المدينة الصغيرة . صف طويل من الخوانيت تبدو خالية من الزبائن . ومع ذلك أصحابها وعمالها يقفون داخلها كأنهم على أهبة الاستعداد . ترى عيونهم السوداء اليقظة تلمع في اليباحس .

والهنود تجار محنكون ينتشرون في عدد كبير من البلاد الآسيوية والأفريقية ويكثرون جاليات كبيرة عددياً ولها ثقل اقتصادي كبير بسبب سيطرتها على التجارة . وعلى عديد من الحرف . ولكن برغم يمتظهم لفرص كسب المال فلم أستمتع بالشراء في أي بلد من البلاد مثلما استمتعت في الهند .

الخانوت الضيق المستطيل يمتد مسافة ثلاثة أو أربعة أمتار وعرضه لا يزيد على متر ونصف . وبطول الجدار على كل جانب تجد مصطبة من الخشب لا يزيد ارتفاعها على متر على الأكثر مغطاة بقماش أو سجاد ملون . تدخل الخانوت على أصوات الترحيب وتجلس متر ببعاً على المنصبة . ويتربع التاجر على المنصبة أمامك .

ذات صباح دخلت أحد متاجر الأقمشة في « بانجات مارج » . جلست القرفصاء أمام التاجر . رجل أسمر يبدو فوق الخمسين ، هادي وقور ، يرتدي اللباس الأبيض الهندي وفوق رأسه الطاقية البيضاء .

« صباح الخير » قافا الرجل بالإنجليزية .

« صباح الخير » .

« أية خدمة ؟ »

« أريد أن أشتري قمصاناً مطرزة » .

نظر إلى بعينه الصغيرتين اللذكيتين .

من أى بلد أنت ؟

« من مصر » .

« وماذا جئت ؟ تسيحة ؟

« لا ، لزيارة مشاريع تنظيم الأسرة . أستمعت عن وسائل تنظيم الأسرة ؟ »

« نعم ، ولكننى لا أمارسها .

« لماذا ؟

« لأن النساء تصق فى وجهى بعد .

إذن تعتقد أن تنظيم الأسرة للمثمراء فقط .

« لا ، إننى لأقصد ذلك ، أقصد أنه علينا أن ننجب . أحياناً على قدر

طاقتنا فى توفير سبل الحياة لهم .

« معك حق .

« ولكن ينبغى أن نسعى لتوسيع سبل الحياة على الناس .

« وكيف ذلك ؟ »

« أن نمسئ موارثنا ، وأن توزع بعدالة بين الناس .

« أليس هذا ما تفعلون ؟ »

« هكذا تقول الحكومة . ولكن ما زلنا بعيدين عن تحقيقه . والمصالح

الكبيرة فى بلادنا ما زالت تلعب بمصائرنا . وهم يمارسون ضغوطاً ونفوذاً

على الحكومة . ونحن التجار الصغار فريسة للكبار . . . .

سكت لحظة كأنه سرح فى شىء بعيد ثم استطرد : « زوجتى مرضت

منذ شهرين فصرفنا مبالغ طائلة على الأطباء والأدوية . أسعار الأدوية

عندنا تفوق إمكانيات متوسطى الحال مثلى ، ناهيك بالفقراء الذين

يستحيل عايتهم شراؤها . فصناعة الأدوية هنا تحتكرها الشركات الأجنبية

الكبرى . تحقق أرباحاً خيالية تصل إلى ضعف أو ثلاثة أضعاف أسعار

الأدوية وتعصرها من المستهلكين الذين يدفعون ثمنها . الإنسان يولد ويدور

كالبقرة في الساقية طوال حياته ثم يموت . ولا يوجد إلا قلة ضئيلة تستمتع  
على حساب الآخرين . أليس كذلك ؟ »

« هو كذلك »

حملك في وجهي كأنه يريد أن يستشف مشاعري إزاء ما يقول :  
« أنت لم تلت لتسمع كلامي » .

« على العكس . أحب أن أستمع إليك . هل تنتمي إلى حزب من  
الأحزاب ؟ »

« أنا عضو في حزب المؤتمر منذ سنين طويلة » .

« وما رأيك في سياسة حزب المؤتمر الآن ؟ »

« حزكت فيه في حركة تم عن الحيرة .

« لم يعد واضحاً ماذا تريد "أنديرا" . إنها تحدثت عن الاشتراكية  
ولكن الرأسمالية تنمو . ومع ذلك نشعر أنها تحب الهند وتريد أن تبنيها  
بناءً جديداً » .

ضرب على جرس يدوي صغير إلى جواره . ظهر صبي من خلف  
سنادة عند آخر الحانوت .

« قهوة » .

« أشكرك . لا داعي » .

« لا . . . لا بد من أن تناول فنجاناً من القهوة . القهوة مستحبة في

الصباح الباكر » .

ثم وقف بقدميه الخافتين على المصطبة الخشبية وأخذ يسحب من  
فوق الرفوف أكواماً من القمصان . في لمح البصر وجدت أمامي عشرات  
القمصان بألوانها الزاهية كالأعلام المتموجة في الريح ، وعلى صدر كل  
قميص رسوم مطرزة بيد تحس فيها الذوق الرفيع الذي لا يصنعه إلا تراث  
الأجيال .

أخذ يستعرض بضاعته ، تحس في حركة يده وهي تبسط القماش

أمامك أنه فخور بما تراه عيناك ، وأن عملية البيع بالنسيئة إليه ليست تجارة وإنما استمتاع وتدقيق هادئ للأشياء . إنه لا يوحى إليك أبداً بأنه مصر على أن تشتري شيئاً ، ولا أن نعمل الذي يقوم به هدفه أن تخرج من هذا المكان بنفذة تحملها تحت إبطك . إنه كالثمن الذي يعرض لوحاته لا يعمل من طلباتك ، وكأنه على استعداد لأن تفرج على كل البضاعة المصغرة على الرفوف المنتظمة بعضها فوق بعض حتى انسقف .

وأمام هذا الجهد الهادئ الصبور كان لا بد أن أشتري شيئاً ، ولكنه جعل من النصف ساعة التي قضيتها في المتكأن لحظات من التبادل الإنساني والتمني . تضاف إلى تلك اللحظات من السعة البسيطة التي تحس في النهاية أنها هي : الحياة .

ولكن ليس في شارع «أجراء» الرئيسي ما بلغت الأهتمام . تحس هنا أنهم تعزدوا اصطفاك السياح ، وأن كل صاحب حانوت يقف عند الباب يحمق في المارة كأنه يبحث عن فريسة . والعميون السوداء هنا كالجواهر المصقولة لما نظرة نفاذة كنظرة العيون الجارحة .

أحسست بالجوع ينقض على فجأة فدخلت أحد المطاعم . « الجارسون » يقف على بضع خطوات منك وعينه مصوبة إليك في نظرة استعطاف توحى إليك بقلب المزيد . هذه النظرة تحس بها كثيراً في الهند تولد لديك مزيجاً من الضيق والشفقة لأنها نظرة الفقير . إن جوارى جلس اثنان ، شاب وشابة عرفت من كلامهما أصانهما الفرنسي . كان الشاب يرتدي بنطالوناً ضيقاً وقميصاً ملوفاً ، يتحدث بصوت عالٍ وحركاته تنم عن العجرفة . كان في حالة هياج مستمرة . كلماته تنطلق في عصبية ، يطلب شيئاً ثم يعيده إلى « الجارسون » رافعاً أذنيه إلى أعلى في إرداء .

وجلست انشابة أمامه صامتة تنظر إليه بعينين فيهما استسلام لتقدر لا بد من تحمله .

حول المائدة الأخرى التفت أسرة من « السيخ » . رجالان أجسادهما

فضيحة . تزيد من فضاحتها المنحية السوداء المسترساة . وطفلان كالعبدان  
 الخشبية المحروقة لا ترى فيها سوى لعين الناحية . رائحة العطر . وحرير  
 العمامة . والمنحية الناعمة تشعرك بشيء كالألوة . بأخس المزوج .  
 أحسست بالطعام يسرى كالتيار الذاتي في جسدي . أشعلت سيجارتي  
 واستسلمت لإحساس من الرضى بالحياة . لحظات تعيشها بعيداً عن  
 المحزنة الأيام . لحظات نادرة قصيرة كالأحلام تبخر في الصباح ولكنها  
 تبقى في الذاكرة كأنها الشيء الوحيد الحقيقي في هذه الحياة . ترى بماذا  
 كان يحلم صانع « التاج محل » ؟

### « أتشا »

لا أميل بطبعي إلى الذين يتكلمون كثيراً . وتجربتي في الحياة جعلتني  
 أحذر من نوعين من الناس : الثرثارين ، والذين يدافعون عن آرائهم بتطرف ،  
 فلم أتذكر أنني قابلت شخصاً يتسم بالجدية والعمق ويكون كثير الكلام  
 في الوقت نفسه . بل على العكس عندما أخطأ بالناس . أجد  
 نفسي منجذباً بشكل طبيعي نحو الشخص الذي يبقى صامتاً ، وأبذل  
 المحاولات لاستكشاف ما يخفيه هذا الصمت تحت السطح . ولا أقصد  
 بالطبع أن هناك تلازماً حتمياً بين الصمت والعمق . ففي بعض الأحيان  
 تكشف أن الصمت يعبر عن فراغ الشخصية ، عن عدم وجود شيء  
 في أعماق الشخص يستطيع أن يعبر عنه .

أما التطرف في الآراء فهو غالباً ما يتم عن محاولة لإخفاء حقيقة  
 الإنسان . فالذي يتحدث كثيراً عن الثورة تجده كفض المالح يذوب  
 عندما تندفع الأحداث وتتأزم ، والذي يتحدث عن الشجاعة يرتجف  
 إذا ما استلزم الأمر أن يواجه من هو أقوى منه . بل كثيراً ما تجد ارتباطاً  
 وثيقاً بين الثرثرة والتطرف . فهما يمان عن كيان أجوف كالطبلة ، تحدث  
 ضجيجاً وهي مملأى بالهواء .

والخسود بضبعهم ثرثارون . وهذه إحدى الصفات التي لا تعجبني فيهم . وربما كانت هذه اصفة علامة من علامات التخلف . فعندما تتقدم الشعوب يتعمق إدراكها للعالم الذي يحيط بها ، وتنمو قدرتها في السيطرة عليه وتسييره وفقاً لبرغباتها . وتغييره في الاتجاه الذي تريده . وهنا يحل الفعل مكان الكلمة . وتصبح الكلمة تعبيراً دقيقاً ومختصراً للفعل ، وتتحول اللغة من أداة لبلاغة إلى أداة للعمل .

ومع ذلك فإن للكلمة جمالها . ويزداد جمالها كلما كانت قادرة على التعبير باختصار عن معنى عميق . وفي اللغة الهندية هناك كلمة أسرتني بجاذبيتها . كلمة « أتشا » إنها تعني نعم . ولكن مع ذلك فلها عشرات المعاني التي تتباين . وتتلون . وتتنوع ظلالها حسب الطريقة التي تنطق بها . قوية قاطعة أحياناً . مفعمة بالحنان والرفقة أحياناً أخرى . تتباين حسب حركة اليد . أو الكتفين . أو نظرة العينين . أو ذبذبة الأحبال الصوتية . واكتشفت بالتدريج أنها تعني نعم . ولكنها أحياناً تعني « لا » أو « هكذا » ؟ أو « موافق » أو « أنا مندشمش » أو « أنا مستنكر » أو « كما تشاء » أو « أنا مستسلم لك » . وعندما أتذكر الهندي ترن كلمة « أتشا » في أذني كالنغم . وتجدد معها عشرات بل مئات من صور تلك القارة الضخمة التي تضطرم حياتها بسخونة الملايين .

### المتاجرون بالخرافة !

في يوم من الأيام كانت المياه تباع في بعض أحياء القاهرة . وفي المدن الهندية الكبيرة تجد رجالاً يقفون أمام فناطيس ضخمة مثبتة فوق أربع عجلات يدفعونها أمامهم . ليبيعوا أكواب المياه المشحجة بمبلغ يساوي قرشاً واحداً من قرشنا .

ومدينة نيودلهي ليست مدينة واحدة بل مدينتين : دلهي الحديثة

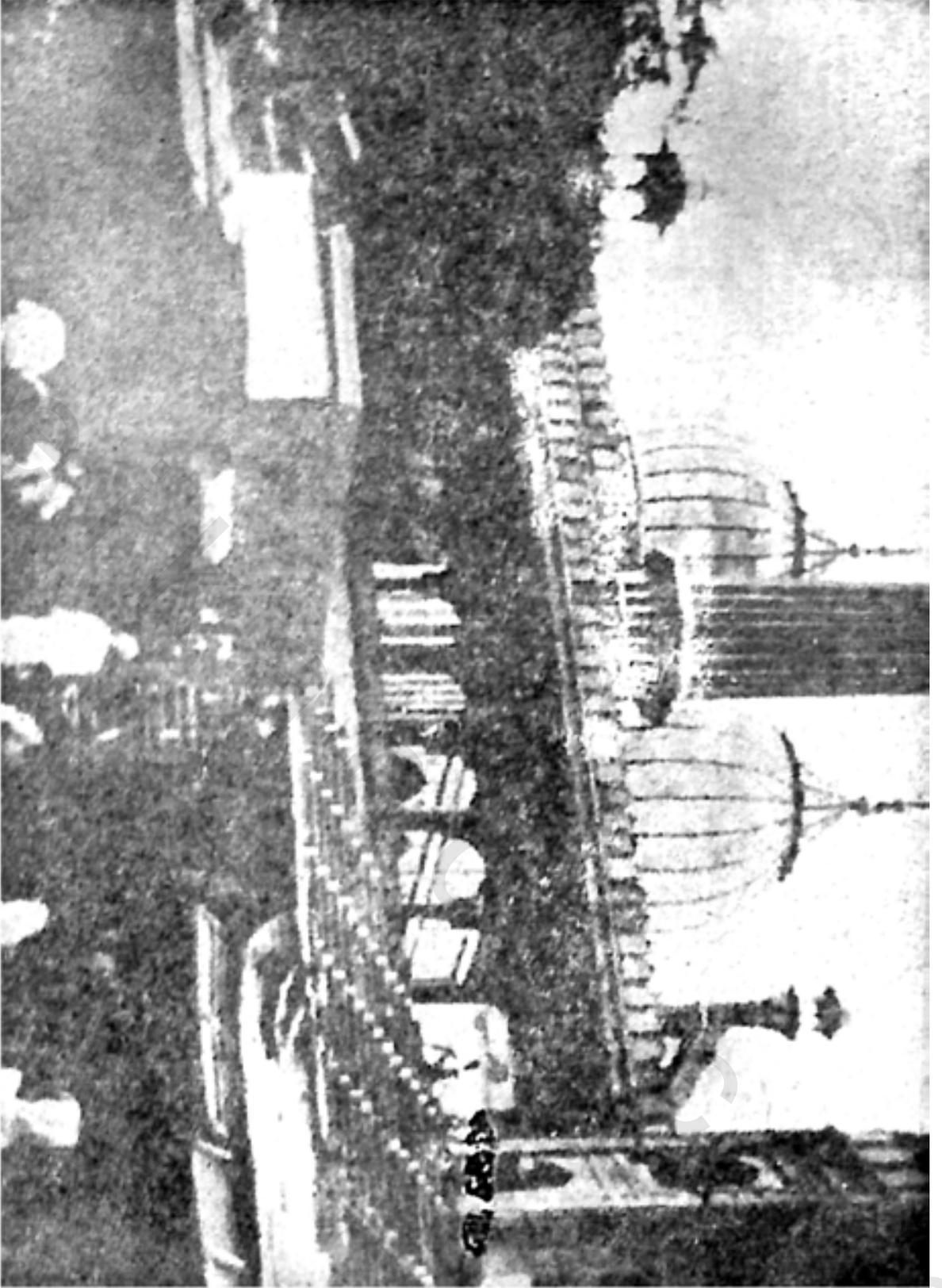
ودلحى القديمة . وفي إحدى الأيام قادتني السيارة الفولكس الصغيرة إلى المدينة القديمة . كنت قد رأيت القبة الحمراء : وصرخى نهر وغاندى من قبل ، ولكنى ذهبت هذه المرة أقصد زيارة الجامع الضخم الذى تحت مآذنه العالية ترتفع فى عناد نحو السماء الرمادية :

والسما هنا دائماً رمادية . لا ترى مساحة زرقاء إلا فى القليل النادر . وفى أغلب الوقت تهب الأمطار الغزيرة فى سيوف لا تنقطع لتجول الشوارع إلى أسفار وقذوات كأنك تعيش فى مدينة عاتمة .

ولكن فى هذا اليوم كانت الرياح المنعشة تجتاز المساحات الخضراء بعد أسبوع من الأمطار المستمرة . الجامع يرتفع على ربوة عالية يظل بكبرياء فوق المدينة القديمة . وحول الجامع شوارع ضيقة ازدحمت بالناس والخوافيت الصغيرة وعلى الأرصفة ، تندات ، ممزقة مرفوعة على عصي من الخشب تحبها أكوام من الملايس القديمة والحرق والحبال ، والزجاجات النارضة تنوح منها رائحة غريبة خائفة ، والمسامر الصدئة . ورجال عجوز وصبيان فى أسماهم المنزقة يحملون أمامهم فى يأس كأنهم قملوا الأمل منذ زمن بعيد فى أن يلتفت أحد إلى بضاعتهم . والسلام العريضة تصعد إلى الجامع من جميع الاتجاهات يجلس عليها مئات الشحاذين ، أجسادهم بلا عيون . أو بذراع واحدة تمتد إليك ، أو بسيقان تنهى عند الركبة . ورجال ينامون على البلاط يسيل من أفواههم لعاب أبيض كالذى أصابته نوبة صرع . ووجوه لا ترى فيها سوى عيون تحديق ، وعروق وعظام . فهنا فرق درجات الجامع رأيت الجوع يتحرك ، وينشى ويتجول بنظراته الضائعة .

عند مدخل الجامع وقف رجل طويل انقمامة كعصاه الخيزران ، الوجه المذيب ينهى عند الذقن فى لحية بيضاء ، وعلى جلده الأسمر تشوهات الجدرى القديم .

خلعت حذائى وذهبت لدخول الجامع . مخاطبى الرجل بلغة عربية



دہلی القديمة : لقطه داخل القلعة الحمراء

ركيكة تبينت بعض كلماتها بصعوبة شديدة .

« مسلم أنت ؟ »

« نعم من مصر » .

انكشنت شفتاه الرفيعتان عن أسنان مدبية كالأنياب :

« إذن تعال معي » .

سرت وراءه . قادتني إلى زاوية من زاويا الجامع . الأرض مفروشة بالسجاد وفي الجدار قوس مفتوح يقود إلى حجرة صغيرة لانكاد تسع الرجل الجالس الترفصاء داخلها وإلى جواره صندوق أسود صغير . اقتربت بشيء من الحذر . الرجل طويل نحيل والوجه تكسوه صفرة مريضة يؤكد سواد اللحية الفاحم .

كان يرتدى قفطاناً أسود . وعمامة ، ويحمل في يده اليسرى مسبحة طويلة تدور بين أصابعه العصبية .

أحسست بعينين سوداوين باردتين تستقران على وجهي ، وانتابني شيء كالتشعريرة الخفية .

فتح الصندوق وأخرج صفحات من الجلد صفراء مكتوب عليها بالخط الكوفي . قال :

« هذا قرآن سيدنا علي » .

حماتت فيه شيء من الاندهاش ثم أومأت برأسي في محاولة لإخفاء ما كان يدور في ذهني . أخرج قطعة حجر انطبعت عليها معالم قدم .

« وهذا قدم النبي ... أذاب الحجر فانطبعت عليه قدمه وهو يسير » .

أعاد الأوراق وقطعة الحجر وأخرج زوجاً من الصنادل البدوية كادت أن تنفتت من شدة القدم .

كان يحملها برفق ويتمم بكلمات غير مفهومة كأنه يتعامل مع

أشياء مقدسة . استقرت على وجهي نظرة العينين الباردة . أحسست وكأنني أواجه نظرة الثعبان .

قال :

« وهذا صندل النبي » . ثم مد يده وأخرج حزمة شعر واستطرد : « شعرات من ذقن النبي عليه الصلاة والسلام » وكأنه تذكر هذه المرة إضافة : « عليه الصلاة والسلام » .

أومأت برأسي من جديد كأنني أؤكد صدق كلامه ودقته . فتح عليه خشبية مطلية بقشرة تبدو كالفضة . في القاع كانت ترقد بعض قطع النقود .

أحسست بالعناد يستولي علي ، ذلك العناد الذي يمتلكني كلما واجهت من يحاول أن ينصب علي بأي شكل من الأشكال .

قلت :

« لا » .

استدرت ساثراً فوق البساط . ارتديت حدائي تحت نظرات الكراهية وكأنها فوهات بنادق . هبطت السلام بين الأجساد المعذبة المتناثرة فوق الأرض ، والعيون كأفواه الفاعرة الجائعة .

أحسست بقطرات المطر تسقط فوق رأسي وذراعي . سرت متجاهلاً الإنذار . كانت بي رغبة إلى السير تحت المطر ، إلى الغرق تحت مياه السيول وكأنني أسعى إلى إطفاء شعلة الغضب التي تحرقني كالجمرة الدفينة . مر بي رجل يركب دراجة . توقف عندما رآني أخوض تحت المطر على قدمي . أشار إلى بالركوب خلفه . كان قد ثبت مظلة سوداء فوق دراجته فسرنا عبر الشوارع تبدو كالأنهار الفائرة في زمن الفيضان . الرجل نحيل ترى عضلات ساقه نافرة كالأسلاك من شدة المجهود . مر الوقت وكان المسافة إلى نيردلي لا نهاية لها . ندمت على أنني ركبت خلفه وفكرت في النزول . كنت أحس من تقوس ظهره ، ومن ضغط قدميه

على "البدا" أباالجهود الذي يبذله ولكنني أدركت أنني سأحرمه من روية  
أو اثنتين يحلم بهما الآن ، وهو يشق طريقه عبر المطر المتهمر ، ويتخيل  
نفسه عائداً إلى البيت يحمل إليهم ما يسكت جوعهم ولو إلى حين .  
المطر يرف على الشوارع والأرصنة بصوت كملابن الأصابع الرفيعة ،  
وبين الحين والحين ينطلق الرعد بذلك الصوت الخفيف الذي يجعلك  
تتوقع كارثة ما . تذكرت طفولتي . كانوا يقولون لي إن الرعد هو اصطدام  
بين السحب الكثيفة الغاضبة . كل طلقة للرعد تبدو كأنكرباج الهائل  
تسمع لسعة ذيله عند آخر السماء . وبعد الرعد ينهمر المطر أكثر بغزارة .  
مررنا وسط حدائق وبيوت الأحياء الفاخرة . رأيت بوابة ترتفع كقوس  
النصر وطريقاً يمتد في خط مستقيم إلى داخل حديقة هائلة . وعند آخر  
الطريق قصر أحور يرتفع كتلا من الحجر الصامت بدا بعيداً مغلقاً  
على نفسه ، كأن أحداً لا يستطيع أن يصل إليه ليكشف ما وراء الجدران .  
سمعت أنفاس الرجل الالهة وهو يقول :

« قصر الرئاسة » أحسست بالماضي يجم بثقله على هذه البلاد الجذابة  
المنزعة ، الجميلة القبيحة تختلط فيها الألوان الحلوة والآمال بسواد الجوع  
وقسوته . فالجدران العالية تراها في كل مكان تفصل بين مجتمعين ، بين  
دلى الجديدة ودخى القديمة ، بين الهند التي تولد مع صحوة الملايين وبين  
الهند التي يريدها سلاطين الأرض والمال .

### مناقشة في حدائق « لودي » !

كل شيء معد الآن للرحيل . الحقائب مجهزة في الحجرة . والحساب مدفوع .  
منذ يومين تناولت العشاء في منزل مدير إدارة التدريب بجهاز تنظيم الأسرة  
وهو أستاذ سابق للبايولوجية ( علم الأنسجة المريضة ) في كلية الطب . كان  
يستعد للعودة إلى الجامعة مرة أخرى . شقة كبيرة جدرانها عالية ، وأصواتها  
خافتة وأثاثها عتيق قاتم ، ينجم عليها جو من البرود الغريب ، وكأن الذين

يعيشون هنا بقايا ما نحن مات وانتهى. الرجل طيب ، وزوجته سيده متديبة  
أثناء ضيية وبنها اسم احدى وعشرون سنة حمرة كالتغراشة. وكنت تحس  
أنهم يحيون في علم من صنعهم . علم رومانسي يحش بانعواصف ، ولكنه  
منفصون عن الحياة ، منفصون عن الحركة الدائبة الساخنة للجموع التي  
تروح وتجيء في شوارع المدينة الكبيرة .

حتى الغذاء لا طعم له ولا رائحة . أشياء باهتة موضوعة في أطباق .  
بين الحين والحين تسقط فيها حشرة من الحشرات الطائرة . الرجل يحس  
أمامي على كنية والحديث يروح ويحيء بيننا في فتور . شيء ما في الجو  
يروح بالعزلة انمامة ، بالاختناق ، كأن الجناحين أجساد بعثت من الماضي  
لتشهد ما ينور اليوم .

وبالأمس اذرت الذكورة ، راو ، في منزلها لأودعها وأشكرها على  
اهتمامها المستمر والجهود التي بذلتها حتى أحصل على أكبر قدر من  
المعلومات والفائدة في أثناء إقامتي في نيردهي . واستمتعت طوال الساعتين  
التي قضيتها في المسكن الصغير المكون من ثلاث حجرات بالأحاديث  
الأسرية البسيطة ، والضحكات الشابة ترون في استرسال مُعَدِّ ، وجو  
البساطة الدافئة الحالية من العقد .

وتجولت قليلا بين أجنحة الفندق . كانت الإدارة تجري ترميمات  
وتجديدات واسعة . وحركة دائبة من العاملات والعمال يروحون ويحيون  
حاملين أكياس الرمل ، والأسمنت ، والجبس ، وكميات من الطوب  
الأحمر . الأجسام الهزيلة تنوء تحت الأحمال . تراهم يسريجون عند  
الأدوار وتسمع أنفاسهم الملهثة وهم يصعدون الدرجات ودهنهم أظفانهم ،  
كتل صغيرة من اللحم العاري ، يجلسون على الأرض البساط ، أو يصطحبون  
أمهاتهم عبر الأبهاء الطويلة المظلمة ، أو يقضون حاجتهم في الأركان .  
لم يبق سوى زيارة واحدة . تحبير أمريكى في علم الإجماع قضى  
حتى الآن ثمانين سنوات في الهند .

اتفقنا على أن نلتقى في مكثبه الساعة الرابعة بعد الظهر ثم أنزل إلى « حدائق لودي » الجاورة .

كل شيء في هذا الرجل حجمه ضخيم . رأسه الكبير تعلوه هالة من الشعر الأشقر الكثيف وكأنها عرف الأسد واليدين الكبيرتان أصابعهما طويلة ، سميقة ، قوية . والقامة طويلة ، عريضة ترتفع إلى أعلى فوق ساقين كجذوع الشجر . والكتفان والذراعان ممتلئة تحس بالعضلات المتضخمة تحت القميص ، وترى العنق يبرز منه كقاعدة التمثال المصبوبة .

العينان الزرقاوان ينظران إليك في برود هادئ . كان من المفروض أن نتحدث عن تنظيم الأسرة ، ولكن الحديث اندفع منذ البداية إلى السياسة . كنت أحس كأن شيئاً ما يضطرم في داخله ، شيئاً ما أصبح شغله الشاغل بحيث لا يستطيع أن ينفصل عنه أو ينساه . فركته يتكلم مكثفياً بأن أوجه إليه سؤالاً بين الحين والحين حتى لا يتوقف الحديث . كان في حالة غير عادية !

« الهند خطت خطوات كبيرة في السنين الأخيرة . ومع ذلك لم أعد متفائلاً كما كنت عندما جئت إلى هنا منذ ثماني سنوات . أصبح هناك جو ينجم على البلاد لا أدرك كنهه ، نوع من القومية المبالغ فيها تؤدي إلى رغبة متزايدة في الاعتماد على النفس ، في الاستغناء عن المساعدات التي يستطيع أن يقدمها الغرب . وأنا أحتشئ هذه الروح . إنها ستؤدي في رأيي إلى تدهور في الموقف ، وإلى إخفاق الجهود التي تبذل للبناء وربما إلى الفوضى » .

« أليست هناك أسباب لذلك ؟ »

« طبعاً هناك أسباب . بعض الأخطاء في سياستنا وموقفنا في الحرب الأخيرة . ولكن من الذي لا يخطئ في مواجهة تعقيدات عالم اليوم ؟ وهل يمكن أن ننسى أن أمريكا ارتباطات متشابكة مع دول

كثيرة لا بد أن تؤثر على سياستها؟ وهل كان من الممكن أن نتخلى عن باكستان؟»

«ولكن هذه الرغبة في الاستقلال . هذا الإدراك المتزايد في البلاد النامية بأن جهد الشعب نفسه وسعيه الدائب لتحقيق التطور الاجتماعي وقدر أكبر من الرفاهية الموزعة بعدالة على مختلف الفئات والطبقات ، ما الذي يزعج في ذلك؟» .

« هذا ليس ما يزعجني وإنما يزعجني أن يتم هذا في عزلة ، بل ربما في عداوة مع الغرب .»

«ولكن هل تعتقد أن العداوة نابع من البلاد النامية . ما هي المساعدات الحقيقية التي يقدمها الغرب لشعوب التي تخلفت بسبب سياسة الغرب الاستعمارية؟» .

حملق في وجهي بنظرة باردة . ثم قال :

« ينبغي أن نظوى صفحة الماضي ، ونفتح صفحة جديدة . إن العالم يتغير ، والسياسة تتغير معه .»

« هل تغيرت إلى درجة الاستعداد لمساعدة الهند مثلاً في أن تصبح دولة صناعية عصرية تطعم الجوعى وتوفر لهم العدالة الاجتماعية التي أصبحت حلم كل إنسان في عالم اليوم . ألن يكون هذا على حساب الأموال التي تستنزف لخدمة الدوائر المالية الحاكمة في الغرب؟ هل يمكن أن تتغير السياسة إذا لم تتغير المصالح؟» .

« وماذا تفكر كل البلاد في التصنيع العصري . أليس هناك تقسيم للعمل؟ هذه سنة الحياة . لكل منا وظيفة وعمل . قانون الطبيعة الذي لا يتبدل .»

أحسست بالحديث بيننا يتعثر كأن حاجزاً ما يحول دون التفاهم . تناولت آخر رشفة قهوة في الفنجان وقمت التي نظرة على المكتبة ترتفع

رفوفها المتتالية حتى السقف . دق الجرس الصغير المثبت في مكتبه :  
دخلت فتاة هندية فسألت :

« كنت قد أعددت بعض الكتب للدكتور . أين هي ؟ »

أشارت إلى مجموعة من الكتب على مكتبه . قدمها لي وهو يقول :  
« بعض الكتب عن طريقة إدخال المشككة السكنانية وتنظيم الأسرة  
في مراحل التعليم المختلفة . دراسات أجراها الأستاذ "متنا" في المعهد  
العالي للمهن التعليمية ربما وجدت فيها بعض الفائدة » .

« متشكر . ستكون مفيدة لا شك . فهذه إحدى الوسائل التي يستطيع  
بها التعليم إعداد الأجيال القادمة بفهم أعمق لهذه المشكلة الحيوية ،  
وبضرورة تغيير أنماط الحياة . وبالمناسبة نسيت أن أسألك عن الدراسات  
التي تقوم بها الآن » .

« أنا أجرى دراسة اجتماعية عن بعض العادات والنظم المتعلقة  
بالزواج في الهند . وقد سافرت إلى العديد من الولايات وأقمت فيها فترات  
طويلة . واكتنى أعمال الآن في المنطقة الخيضة بدلي » . وقد اكتشفت  
أه ، على بعد ما لا يزيد عن ٤٠ كيلومتراً من العاصمة ، توجد عادات  
غريبة موروثية عن الماضي . فمثلاً في كثير من الأسر ما زالت الزوجة  
تعاشراً ، لا الزوج فقط ، وإنما إخوته أيضاً معاشرة جنسية  
منتظمة ، وهذا يعلم الجميع بدون إفصاح علني عن هذه العلاقة المتعددة  
الجوانب . ولكن عند ما يكون أحدهم في حجرتها يترك صندله أو حذاءه  
في الخارج حتى يعلم الآخرون . وفي قديم الزمان كان يترك سيفه  
أو رمحه معانقاً على الجدار خارج الباب حتى لا يدخل أحد عليهما ..

الخدائق في الخارج يحجم عليها هدوء اليوم الذي يقرب من  
نهايته . شباب وفتيات يسرون متشابكي الأيدي يتحدثون في همس  
كأنهم يريدون الحشاظ على سحر اللاحظات الجميلة . مساحات خضراء ،

ومناثيل ، وأحواض من الزهور وأشجار ، ممرات مرسوسة بالزئط  
والخجارة المنونة. مساحات تبدو لانهائية ، ترتفع وتنخفض في تلال ووديان  
صغيرة . وأسراب الطيور المنونة تنتقل من شجرة إلى شجرة تشدو بصوات  
كالموسيقى . « والسارى » السون فوق الأجسام الرشيقة السمراء ينقرت إلى  
زمن مضى : زمن الشعر ، والتأمل بعيداً عن ضجيج المدن والآلات .  
غريبة اخند هذه . فيها جمال الشعر وعمق التفكير المتأمل وفيها  
كل قبح الإنسان انبئس المضحون .